كتاب الحمامة لابن العبري

تصدير

من مذكرات القلم للبحّاثة المرحوم الاباتي يوسف حبيقه الراهب اللبناني

ترجمة « كتاب الحمامة » للعلامة المقريان غريغوريوس بن العبري الملقب بابي الفرج ، من السريانية الى اللغة العربية . وكنا قد وقفنا على نسخة قديمة من ترجمة هذا الكتاب ، في مكتبة المخطوطات بالحرف الكرشوني في دير الشرفه ، تحت رقم ٩/١٨ . وهي منضمّة الى غيرها في مجموعة صلوات ومقالات ، جاء في آخر هذه المجموعة ما نصّه : « قد ملك هذا الكتاب القس مخايل بن نعمة الله جروه (البطريرك فيما بعد) ، عام ٢٠٦٥ يونانية توافق ١٧٥٦ مسيحيته . وفي آخر النسخة المذكورة هذه العبارة بحرفيتها . «هذا ما قد تيسّر للعبد الخاطي في نقل هذا الكتاب (الحمامة) المبارك . ويجب ان نعلم ، يا اخي تاج الدين ، طريقة المقريان السيد في اللغة السريانية . ان هذا هو كتاب عظيم يستدعي شرحاً عظيماً . ويجب ان نقف عليه مع مُنبّهٍ خبير بكتب المصنّف . في هذا الكتاب رموز ومعاني مختصرة من الانجيل المقدس ومن فردوس الرهبان » .

ويحسن بنا ان نأتي على ترجمة مقتضبة لمؤلف « كتاب الحمامة » هذا[1] . انه من اشهر علماء عصره . قد ألف في جميع فروع العلوم : الكتابية كتفسير الكتاب المقدس ، واللاهوتية والفلسفية والتاريخية ، والطبية وفي الاداب والاخلاق والرياضيات والطبيعيات وعلم الهيئة والشعر ومن تآليفه الروحية « دهْاحًا ونُهما » كتاب الحمامة وتبدو لك الغاية من وضعه في مقدمته .

أبصر النور في السنة ١٢٢٦ في مالطية حاضرة ارمينية الصغرى ، على ضفة الفرات . وهي تعدّ من اعظم قواعد تلك البلاد على رغم ما حل بها من نوائب الزمان . وكانت حافلة بالنصارى يأنوها لما يجدون فيها من اسباب المعاش . قد اشتهر فيها قبل ابن العبري ، ديونيسيوس برصليبي † سنة ١١٧١ ومخايل الملقب بالكبير المتوفى ١٠٩٩ .

اما لقبه « بابن العبري » فلا يدل على كون اصله يهودياً كما ادعاهُ الكاتب رَيْث وعنه اخذ العلامة بطرس البستاني في معجمه دائرة المعارف . لانه بعد التنقيب عن هذه القضية ،

---

١) المشرق ١ (١٨٩٨) : ص ٢٨٩ ؛ ٣٦٥ ؛ ٤١٣ ؛ ٤٤٩ ؛ ٥٠٥ ؛ ٥٥٥ ؛ ٦٠٥

وجد في نسخة خطية من اعمال ابن العبري في باريس انه كان ابن اخي البطريرك مخايل الكبير المار ذكره؛ فلو كان هذا البطريرك حديث العهد في النصرانية ، لما كان انتخبه اهل ملتهِ بطريركاً عملاً بقوانين الكنيسة الشرقية. وقد دعي ابن العبري بالمسودية يوحنا كما هو ظاهر من التاريخ السرياني المحفور على ضريحه في دير مار متى. واتخذ في الكهنوت اسم غريغوريوس. ولقب « بابي الفرج » تيمناً بهذا الاسم لا غير. وقد ترهب وهو حديث السن.

كان والده اهرون من وجهاء قومه ، يحسن الدروس الطبية ويتعاطى العلوم الفلسفية. فاخذ يلقن ابنه يوحنا مبادئ المعارف البشرية ، وهو بعد حديث السن. وكان الولد ذكياً ذا قريحة وقادة. فما لبث ان احكم هذه الدروس الاولية حتى دفعه ابوه الى ابرع اساتذة بلده. فاقبل الشاب على درس اللغات الثلاث: السريانية واليونانية والعربية. وما عتم ان أتقنها جيداً وتضلع من آدابها ، وجعل يكتب فيها بسهولة غريبة ، كما تدل عليه تآليفه العديدة. وقد ترجم الى العربية كثيراً من الكتب اليونانية للفلاسفة الاقدمين كارسطو وغيره. ثم انكب على درس الفلسفة واللاهوت وامتاز فيها على اهل عصره من الشرقيين كما تنطق به مآثره العلمية في هذين العلمين السامين. وزاد عليها درس الطب أخذاً على ايدي النطاسي البارع وعن غيره من الاطباء.

ولما دهم ماطية هولاغو ملك المغول ، سنة ١٢٦٢ جاء به ابوه اهرون الى انطاكية وكانت بعدُ بيد الافرنج يتولاها ملوكهم منذ السنة ١٠٩٨ م فكان الشاب يوحنا يتردد على علماء البلد ، يرتشف منهم الآداب والمعارف التي كانت تزيده زهداً في الدنيا. فخرج الى جبل بجوار انطاكية واعتزل في مغارة متفرغاً لاعمال التقوى والعبادة والدرس. ولما انتشر صيته وعلم به البطريرك اغناطيوس ، أحب ان يزوره في منسكه ويشّطه على اتمام قصده. وظل ملازماً طريقة النسك سنة فقط. ثم جاء الى طرابلس لبنان قاصداً يعقوب احد مشاهير الناسطرة ، استاذ العلوم الادبية والرياضية والطبية ، فغرف من هذا الينبوع ما كان فاته من تلك العلوم. ورقّاهُ البطريرك اغناطيوس سابعاً درجة الاسقفية. وفي السنة ١٢٧٦ نصّبه البطريرك اغناطيوس الثالث مفريانًا على المشرق. والمفريان لفظة سريانية من فعل فَرَا غا وأمر واسم الفاعل مفريانا اي المولّد والمثمر. كان البطاركة اليعاقبة يقلدون هذا اللقب نائبهم في بلاد العراق وبابل وما بين النهرين ليقوم بامور ملتهم ويدافع عن حقوقهم عند ملوك العجم. واولُ وضع هذه الرتبة كان في القرن السادس بعهد يوستينيانوس الملك ولم تزل ثابتة عند اليعاقبة الى يومنا. وللمفريان رئاسةٌ على الاساقفة وعلى رؤساء الاساقفة وله السلطان كالسيد البطريرك وربما دعي باسم الجاثليق اي الاسقف العام[1] ✝ (Primat).

تسلّم ابن العبري كرسيّه في تكريت حيث قضى باعباء مقامه السامي ثمانيًا وعشرين

---

١) المشرق ١ (١٨٩٨) : ص ٣٦٨

سنة . وفي زياراته الموصل لاقى كل حفاوة واستقبال باهر من الشعب . ثم ركب دجلة قاصدًا الى بغداد وقد رقّى الى درجة الاسقفية اثني عشر اسقفًا من الاكفاء وقام بمهام ابرشيته بما عرف به من غيرة وحميّة .

وكان ابن العبري قوي البنية كل من رآه قال عنه انه يعمّر طويلًا الا ان ما نهض به من المشاريع الجليلة والتآليف العديدة وما تحمّله من المشاق في حياته كان قد انهك قواه . وقد زاده تعبًا وغمًّا ما قاساه من ذوي ملته من مخاصمات ومنازعات . وكان وهو على فراش الموت يردد هذه الآية: « كل بشر عشبٌ وكل مجده كزهر الصحراء » (اشعياء ٤٠ : ٦) ويحرض تلاميذه على التحاب والالفة مكررًا قول الرب : جذا اوصيكم ان يحب بعضكم بعضًا (يوحنا ١٣ : ٣٤) . وكان جميعُ مَن حولهُ يذرفون الدموع ويذرون التراب على رؤوسهم ويمزقون ثيابهم حسرة وأسىً . فانتقل الى رحمة ربه في ليل الثلاثاء الواقع في ٣٠ تموز من السنة ١٢٨٦ عن ستين عامًا ودفن في دير مار متى حيث لا يزال قبره مكرمًا وكان فقده ضربة قاضية على العلوم والاداب بين اليعاقبة واصبحت طائفتهم اشبه بشجرة ذوت اغصانها ونضب ماء حياتها فأمست باغطاط وتقهقر .

(الاب بطرس ساره اللبناني)

اليك الاذ كلمة مترجم كتاب الحمامة

بعد حمده تعالى يقول مترجم هذا الكتاب ان ما حملني على تعريب هذا المؤلف الجديد هو ما رأيته من رقيع معانيه وانسته من بديع مبانيه ولا بدع في ذلك فان شهرة مؤلفه في عالم التصنيف تكفي شهادة بهذه الحقيقة . فعسى ان يروق عملي هذا محبي اللغة السريانية والله حسبي ونعم الوكيل

مقدمة المؤلف

كما اننا ايها الاخ نجد مؤلفات ترشد الى مواساة مرضى الجسد وتغني عن الطبيب ، كذلك في طب النفوس يجب ان نوضح طريقة ارشاد لمرضى الروح الذين لا مرشد لهم او يكادون . سيما في عصرنا هذا الذي خلا به السريان من علّامة خبر بنفسه هذا الامر وعرف ما اضيق الباب واحرج الطريق المؤدي الى الملكوت .

ذلك ما حدا بنا الى وضع هذا التطعيم في كتابنا هذا الذي غزرت معانيه وإن يسُرت مبانيه . وقد قسمناه الى اربعة ابواب : الباب الاول في العمل

الجسدي الذي يجب فعله في حـ ـ . الثاني : في العمل الروحي الذي تجب ممارسته في القلالي . الثالث . في معنى راحة الحمامة بما يعزّي الانسان الروحي ويرقى به الى المقام الملكي ويلج به السحابة الالهية . الرابع : في ترقي المؤلف بالعلوم وفي ايضاح بعض قضايا .

وهذه الانواع الاربعة تمثلها اربعة ادوار حياة نوح البار . الاول خدمته البارة التي ارضى بها الله تعالى . الثاني ولوجه الفلك ونجاته بها من الطوفان . الثالث خروجه منها اذ بشّرته الحمامة بتناقص المياه عن وجه الارض . الرابع الأوحية التي كانت اليه والعهد الذي عُقد معه ونصبه الكرمة وسكره بعصير ابنتها .

وقد كانت حمامة نوح البار عجباء مائتة اما حمامتنا فهي ناطقة حيّة ، تهب الناطقين نطقاً والاحياء حياةً . تطير طيراناً ولا تتزحزح قيد شعرة عن وكنها الذي يسمو بيعة الابكار . تجوب الاقطار والامصار وهي في مقرّها المختار . لا صورة لها وتحوي جميع الصور . المشرق مقرّهـا والمغرب ملآن منها . النور قوتها ومن يتخذ جناحيها يتوقد فهو ناراً . وهي تستطلع اسرار مرضى الغرام وأحاجي جرحى الهيام وتروي غليله . فصوتها يدوي في جميع الآذان وقليلون الذين يسمعونه من بني الانسان . تدعو الجميع باسمائهم فيجيبها واحد من الف . نوحها اكثر عذوبة من نغم الارغن فيصدق فيهـا قول الشاعر :

حمـامتي حيّة صفيقة[1] في صفة لمثلها سليقة[2]
لا عيبَ في نقاض صاغها الهـا روحيّة حقيقة

---

١) الصفيق الوقح ، يقال وجه صفيق اي لا حياء فيه .
٢) الطبيعة .

الباب الاول

في العمل الجسدي الذي يجب فعله في المحابس وفيه عشرة فصول

﴿ الفصل الاول : في سبب هجر الانسان العالم ﴾

يهجر الانسان العالم وينكب عن ملاذه لسببين احدهما حقيقي خاص وهو حركة الهيّة تنبعث في قلب الانسان فتوقظه من سباته للتأمل ليلًا ونهارًا في العذاب المحتوم على الخطأة في العالم الآتي والسرور الدائم الذي وُعد به الصديقو. في ملكوت الله وهذا ما أقبل برهطٍ من اماكن عديدة الى معترك النسك ن ثانيهما مجازي استعاري وهو محبة المُجيد الفارغ الذي يدفع الانسان الى اقتحام الاعمال النسكيّة احرازًا له للمجد حتى ان الاغنياء يضحّون في سبيل اكتسابه ما جلَّ من غناهم . وهذا السبب يقرب من ان يكون عامًا ، فلا ينبغي ان يُنبذ تمامًا وان كان مزدرًى بـه . لانه قد يتّفق ان يسقط البذار احيانًا في الارض عن غير عمدٍ فيعطي غلّاتٍ وفيرةً ؛ على حين ان بذارًا سواه لا ينلّ شيئًا مع ما يبذل في جانبه من العناية .

﴿ الفصل الثاني : في التوبة ﴾

فور ما يدرك الانسان مضرّة الخطيئة ، يندم على ما صدر منه من الزلل ويُنكب عمّا تمنّى لاجلـه قاصدًا ألّا يزلَّ بعد . فالتوبة تقبل أيّانَ مُورِسَت . وحسبك مصداقًا لذلك توبة آل نينوى وسمعان رأس الرسل . ومن الخطايا ما يصدر عن النطق مثل الكبرياء والمجيد الفارغ والحسد والثلب . ومنها مايصدر عن الحدّة مثل الغضب والخطف والحقد . ومنها ما يصدر عن الشهوة كالنهم والشراهة والشَبَق . وخطيئة العالم كبيرةٌ ولو صغيرةً . فيجب على من يتوب ان يسأل الله الغفران بزفراتٍ خاشعة وعيون دامعة معترفًا بخطاياه مثل اولئك الذين اعتمدوا من يوحنا في نهر الاردن واولئك الذين جاءوا الرسل وآمنوا معترفين بخطاياهم عملًا بقول بطرس السليح : اعترفوا بخطاياكم الواحد الآخر . ويوحنا يهتف قائلًا : ان اعترفنا بخطايانا فالمسيح امين وعادل وهو يغفر لنا اياها .

الفصل الثالث : في الزهد

حالما ترسخ قدم التوبة في نفس الانسان ويرى ان المقتنيات العالمية الزائدة عن الحاجة الضرورية ، يتطلبها الالم الاثيم ، حينذاك يرذلها زاهداً فيها . وطبقات الزهّاد ثلاث : دنيا . ووسطى . وعليا . فالدنيا تختص بالذين يتركون التنعم خوفاً من العذاب المقبل . والوسطى تختص بالذين يكرهون السرور الزمني حباً بالسرور الابدي . والعليا تختص بمن يطلبون الجوّاد الكريم وحده ، معرضين عما سواه ؛ فهؤلاء يجلهم العلماء ويمدحونهم . والزهد يكون بالدرهم والقوت والمسكن والامتعة . اما بالدرهم فيقوم بنبذه تماماً . والزهد بالكسوة يقوم باتشاح اثواب الصوف او الشعر المعتدلة الطول مع شدّ الوسط بالسيور . ويباح ان يزاد على ذلك الرداء والقبعة والحذاء . والزهد بالقوت يكون بان تذخر لعام او شهر او يوم خبز الحنطة او الشعير او الدخن وتأدمه بالسمن او الزيت او الماء المالح . والزهد بالمسكن يتمّ بان يقطن الزاهد قلّية صغيرة او كهفاً حقيراً ونحوه . او ان يبقى لا موضع له معلوماً على مثال ربنا فيقعد ويرقد في أية زاوية تهيأت له . اما الزهد بالآنية والامتعة فيقوم بان تستعمل ما كان خزفاً او خشباً او يقطيناً .

الفصل الرابع : في التواضع

كثيرون يتزهّدون عملاً ، عن غير قصد فنقول : ان علامة الزهد الحقيقية هي التواضع وعلامة التواضع الطاعة . وللتواضع علامات اخرى مثل ان يجلس الكبير مرتاحاً دون الصغير وقت الصلاة ونحوها . وان يحادث المساكين والبائسين ويشاركهم في اتعابهم متى دعوه . ومثل ان يتشح الأطمار بدون حياء . قال مار اسحق : ان التواضع يغفر خطايا كثيرة بمعزل عن الاعمال . وقال أبوني رئيس الدير : ان الكبرياء وحدها بمعزل عن سائر الشرور استقطت الشيطان من العلاء . والتواضع وحده بمعزل عن جميع الخيور ، يُصعد الى السماء . ومتى مُني المرء بداء الكبرياء ، يشفى بمعرفته انّ اوله نطفة واخره جيفة . والانسان العاقل يقول : كيف يتكبر من ظهر في دَورَين من قذر الأبوال ؟

﴿ الفصل الخامس : في الصبر ﴾

مثلما يستلزم التواضع الطاعة تستلزم الطاعة الصبر على الشدة . والشدة إما زمنية واما ابدية فالزمنية هي علة الراحة الابدية والراحة الزمنية هي علة الشدة الابدية . والشدائد الواجب احتمالها هي الجهاد لكبح شهوة البطن ولذة الجسد واعمال النسك الاختيارية والتجارب غير الارادية التي تعرض بترك الله تعالى للمتوحد احياناً ، امتحاناً له كمصادقة الاشرار الذين لا إله لهم . والسقوط من حالق واحتقار الرؤساء والاخوة المبتدئين اعتباطاً بما يوقعهم في امراض صعبة كالكسل والملل وبلبلة العقل واليأس وعمى القلب وحرمان الغوث البشري . والمبتلون بمثل هذه الاوصاب ، يداوون بتذكر كلمة الرب . من يصبر الى المنتهى يخلص (متى ١٠ : ٢٢) . ويغذون بكلام الاباء على فضيلة الصبر . ونقول باختصار : من لا يشتعل حباً لله تعالى يشبه لبنةً وُضعت في اساس على شاطئ نهر فلا تثبت ساعةً واحدةً على انها اذا أُنضجت طبخاً تثبت ثبات الصخر .

﴿ الفصل السادس : في محبة الاخوة ﴾

علامة الصبر الحقيقي هي محبة الاخوة ، محبةً لا غش فيها ، مقرونة ببشاشة المحيا وهشاشة القلب . فالمحب الصادق يحبّ طبعاً اذ يجد محبّه لذةً بمسامرته وعلة هذه اللذة الجمال الخارج او الباطن وقربى المتحابين الخفية . والاكثرون يحبون البسيطي الهيئة والمضبوطي الهوى . والانسان يحب من ينفعه نفعاً ما ؛ او يرشده الى ربح ما روحي ، مثل معلم التواريا الحقيقية والمرشد الى العمل الافضل . ويحب ذو العقل والعفاف والقنوع والحسن المعاشرة . ومن المحبين من يحتسب حبيبه مثل قريبه فيعطيه مما يربح . ومنهم من يبذل نفسه للضيف بدل محبه . والمحب يتضايق مما اذا لم يُنل محبه حاجاته وكمالياته . فيعطيه بغيته قبل ان يسأله ويقمع مبغضيه ويغفر ذنوبه ويستر عيوبه ويشهر مزاياه الحسنة ولا يثقل عليه ولا يصغي الى اقاصيص جاره في حقه ولا يترصده من ثقب او يترقبه من فلق . ومن لا يعتني بالمؤمنين ابناء ملته فهو شرٌّ من الغير المؤمنين على ما قال بولس المنبوط .

الفصل السابع : في عثرات اللسان

يجب ان نتكلم الآن في عثرات اللسان حذار ان لا يُنكَب عنها من لا يدري مضارّها فنقول :

١ً – الكلام الباطل

وهو ما لا يبرّر اذا نطق به ولا يؤثم اذا أُبقي عليه وعلته غالباً معتلة وهو يداوى بالاخلاد الى السكينة وحبس اللسان عن الكلام حتى ان بعض الناس قد التقموا حجراً أملس حذر ان يتكلّموا فيتكلّموا (١)

٢ً – الثرثرة

وهي كثرة الكلام وشقشقة اللسان وسببها اندفاع الطبع الى الثرثرة وحب الاسترسال في الاقاصيص العتيقة . وهذا الداء يعالج بعلاج الداء المتقدم .

٣ً – الكلام المؤثم خفيةً

وهو وصف مجد الاشرار وبطشهم وغناهم لان السذج متى سمعوا ذلك تتبلبل ضمائرهم وينقص ايمانهم وهذا المرض يداوى اصحابه بتذكيرهم القول الكريم : آخرة الاشرار للهلاك في العالمين معاً .

٤ً – الخصام

وهو اتباع الارادة وعدم الطاعة وسببه الكبرياء التي تحمل المرء على تعظيم نفسه وتدفعه الى البغضة والازدراء برفقائه وهذا المرض يداوى بقمع هذين الالمين السجين .

٥ً – المماحكة

وهي حرب بالكلام تسعر نارها من ظالم ومظلوم فيداوى ذاك بتذكيره أن لا يقرّف احداً . وهذا بتذكيره بالقول الكريم : دَعْ ثوبك لمن يسالك صُدرتك . (توما ٦ : ٢٧)

٦ً – الشتم

وله علتان الاولى تعتد المرء حزن المشتوم الثانية العادة الشريرة المتولدة من

---

(١) يجرحوا

معاشرة الجهال . وهذا الداء يداوى بتذكر النطق الكريم : من قال لاخيه راقا[1] يدان من الجماعة . ومن قال له يا أحمق يشجب في جهنم النار (متى ٥ : ٢٢) . فمن قُرِّف بزلّة فلينسبها الى نفسه لا الى مقرّفه وهكذا ينجو من بغضه .

٧ً – التجديف

وهو تغريب الشيء عن الله تعالى وذلك يكون بان يريد المرء الشرّ للآخرين . والعقلاء متى سمعوا القول الكريم : أن باركوا ولاتلعنوا (رومة ١٢ : ١٤) لا يجسرون ان يجدفوا أو يلعنوا .

٨ً – الفتاء

وهو ما يصاغ من الاغاني التي تهيج في المرء حركات الزنا . فلا بدعَ اذا رُذلت . والمبتلى بهذا الداء الوبيل يحال الى انشاد التراتيل الادبيَّة فيشفى .

٩ً – الهزل

ويكون بالكلام المضحك الذي يميت القلب ويعيب كرامة الانسان وعلته في عرف العقلاء دالّة تماثل السموم التي تؤذي الزروع . وهذا الداء يداوى بتذكر الاية الكريمة : الويل لكم ايها الضاحكون الآن فانكم ستبكون وتنوحون . (لوقا ٦ : ٢٥)

١٠ً – السخرية

وهي اظهار عيوب الناس المضحكة استخفافاً بهم واحتقاراً لهم . وهذا المرض يداوى بتذكر القول الكريم : لا تحقروا احداً من هؤلاء الصغار .

١١ – التعيير والاستهزاء

وهما كشف العيوب عن بغض وحقد . وهذا الداء يداوى بترديد القول النبوي : طوبى للرجل الذي لم يجلس في مجلس المستهزئين . (مزمور ١ : ١)

١٢ – الكذب

وهو ان يقال عن الغير الموجود كانه موجود وبالعكس . وهذا الداء يداوى بتذكر القول الكريم : انك تبيد الناطقين بالكذب . واعلم انه متى دعت المنافع النفسية فالكذب لا يؤثم كما جرى لراحاب التي اخفت الجواسيس

[1] كلمة ارامية معناها : « رأس فارس »

وقالت : ليس عندي . فيمكن اذن القول انه يستطاع استعمال الكذب اذا مع الاحتراس والخوف (يريد بالكذب هنا التقييد العقلي كما يفهم من التمثيل).

١٣ – الثلب والغيبة

وهما ان يبرح المرء لآخر بنقائص الغير على غرة من المثلوب وسبب ذلك غالباً خوف الثالب من ان يُظنَّ به سوءا اذا سكت عن المثلوب . فيثلب المرء قريبه عن عجب وشفقة قائلاً : اني اعجب بسقوط فلان في خطيئة الفجور وهو صاحب العقل الصائب . وأحزن لفلان كيف نشبت رجله في فخ السرقة وهو ذو الفكر الثاقب . وهذا الداء يداوى بأن يعدّد المرء فضائل من يزلُّ مردداً قول الشاعر : كفى المرء نبلاً ان تُعدَّ معائبه .

١٤ – النميمة

وهي تذكير المرء بما فُعل من الشرّ بحقه وسببها شرُّ النامّ او صلاح المنموم به فان كان السامع برّاً فلا يصدق النامَّ ولكنه يزدري به ويوبّخه ولا يباحثه ملياً فيُذبرَ خجلاً وَجِلاً .

١٥ – الشفاه المتملقة

ذو الشفتين المتملقتين يمدح كلاً من المتخاصمين حاضراً ويذمّه غائباً فدازه هذا يداوى بتذكر قول الكتاب الكريم : ان الله تعالى يقطع الشفاهَ المتملقة (مز ١١ : ٤) .

١٦ – المديح

ان المادح يسقط في اربعة شرور الكذب اذ يسني المرَّ حلواً والحلوَ مرّاً والرياء حينما يطنب في المدح والضلالة اذ يقول ما لا يعرفه حقاً الشجب اذ يفرح للاثم . وان الممدوح يقع في مضرّتين العُجب والكبرياء . وكلاهما يداويان بلزوم الصمت .

١٧ – سداجة الكلام

ذلك كمن يقول : لولا فلان لاكلني الذئب . وقد كان ينبغي ان يقول : لو لم يُتح اللهُ تعالى لي فلاناً معيناً لاكلني الذئب .

١٨ – التنقيب الباطل

ذلك كمن يبحث عمّا لا تفيد معرفته شيئاً . او عمّا لا يضرّ عدم معرفته شيئاً . كأن يبحث المرء عن اسم ابي ملكيصادق . ونقول : ان المبتدىء يتنقّى ببوتقة المحابس من المعائب المقدّم ذكرها ، كما تتنقّى الفضّة من الخَبَث بكور الامتحان .

﴿ الفصل الثامن : في رجوع المبتدئ القهقرى ﴾

ان المبتدىء بعد ان يكون وفّى المحابس حقّها على قدر ما تطيق حالته ، يعلم أن قد دنا زمن ملازمته القلّية . فيأخذ القنوط بمجامع قلبه ويشرع في مناجاة نفسه قائلًا : لا قِبَلَ لي على الاحتباس الدائم لان ذلك ممّا يفوق طاقتي ؛ فلا يجدر بي ان اقتحمه ، وربّما لا اطيق ذلك فاغادر المحبسة وأمسي اضحوكةً للابالس ومشهدًا للملئكة والبشر، فخيرٌ لي ان اعود الى العالم واتمثل ضمن معتركه ما يُطلب مني من البرّ . ألعلّ الابرار الاولين ابرهيم واسحق ويعقوب لم يقتنوا أماء وابناء وبناتٍ ومقتنياتٍ شتّى ومع ذلك فقد احسنوا خدمتهم لله تعالى اكثر من المتوحدين. وموسى رئيس الانبياء خاطب الله تعالى وجهاً لوجه. وداود الملك والنبيّ ثقّب قلب الرب . وبطرس رئيس الرسل كان ذا حماةٍ وقد أُوتمن على مفاتيح ملكوت السماء . وكثيرون كانوا أصحاب حوانيت فصاروا ابرارًا ، مثل فريسقيلا واقلوس . والانبا مقريس أرسل الى امرأتين في المدينة ليتعلم منهما البرارة . وقد خُصّ قوله تعالى : انموا واكثروا واملأوا الارض بحالة الزواج لا بالبتولية على ما قال بولس المغبوط . امّا البتولية فليس عندي فيها امرٌ من الله ، لكني اشير بها مشورةً . بمثل هذه يكثر المبتدئ التأمل فيتغلّب فيه ميلُ الانقلاب الى العالم فينكص عن التدبّر العقلي ، جانحًا الى التدبّر الهيولي ، اذا لم يسعد بطبيب خطاسي يفتح له عينيه .

﴿ الفصل التاسع : في تسديد خطى المبتدىء ﴾

يجب ، ايّ وجوب ، على مرشد المبتدئ الذي يعرّج على الجنبين ان يناجيهُ قائلًا : بنيَّ أترغب ان يكون حظّك حظّ امرأة لوط التي عادت نصبَ ملحٍ فَوْرَ ما التفتت الى ورائها . ألم تسمع قول الرب ؟ : ما من احد يضع يده

على المحرث ويلتفت الى ورا . فيصلح سكوت الله (لو ٩: ٦٢) . حقا يا بني انه ليأخذني العجب منك كيف تساوي نفسك بالاباء الاولين والانبياء الالهيين والرسل القديسين أيستطيع الذباب ان يضاهي الاسد دفاعاً أو العليق يقدر ان يضارع الارز ارتفاعاً ؟ بنيَّ لا تطمعْ ، بل اعلم ان حالة الزواج افضل من البتولية الكاذبة ، ذات الحياتين التي تبغي خدمة الله تعالى والعالم معاً ، لكنها اي حالة الزواج ليست افضل من البتولية الصادقة التي لا تنقسم بين المسيح له المجد وبين الملك الارضي ولا تتقيَّد بعهد الحياتين ، لكنَّها تقصرُ حبَّها عليه تعالى وهي ذات حياة جميلة وهيام سام ، خفيفة وضيئة لا تمسُّ الهيولى واللحم وما احسن ما قيل : ان المتزوج مكبَّل اليدين ومقيَّد الرجلين والغير المتزوج موثق اليدين فقط امَّا المتوحد حقاً فيرتقي وهو على الارض الى السماء بجناحيه الروحيين . ونقول : ان العالميَّ لا يكاد يكفي حاجات ذويه من الوجوه الجائزة فمدًّا لهذا الخلل يندفع الى الخطف والسرقة . بنيَّ من يمكنه ان يشبع مطامع الامرأة الاشعبيَّة ؟ بل بعلها ذاته يعاف الحياة بسببها . بنيَّ ان اسباب الخطيئة كثيرة كالحسد والحقد والبغض والشهوة ومحبة التبرُّج وعشق الفضَّة والشره والبخل وفحص احكام الله تعالى غير المدركة ؟ في كون مبغضيه يشبعون ومحبيه يجوعون . وامور اخرى مثل هذه يتنكَّبها المختارون . بمثل هذه الاقوال يبني المبتدئ ويؤخذ بيده فيعود الى حالته الاولى الصالحة .

الفصل العاشر : في علامات الاستقامة

لسير المبتدئ الحسن علامات وهي المشي بهدوء ورصانة والتكلم بصوت خافت والمخاطبة العذبة والنظر العفيف والطَّرْف الكسير والسرور الباطني واللباس الرثُّ والاقتيات باليسير والحب الكامل ومطالعة المزامير بتفهُّم ومحبة الفرباء ونقاوة الافكار . فكلُّ اخٍ يتَّصف بهذه الصفات فهو مستقيم ويجاهد بفرح ويصلي لكي يتوب مبغضهُ ويصغي الى كلام الحكمة ولا يَنْشدهُ لشيء لم يَرَهُ او أمر لم يُخبر عنه قبلًا . ولا يسأل مَن يلقاه لاي سبب يسير . ولا يقصُّ الاقاصيص المضحكة ولا يحبُّ التبرُّج مثل الامرأة ولا يَرْنُو الى لباسه متمايلًا ذات اليمين وذات اليسار . ولا يشبك اصابعهُ ولا يلعب بشعر لحيته أو يتبسَّم

الاخفية . ومتى جاع لا يملأ الفضاء صياحاً ومتى أوقظ لا يتثاءب ولا يخرج ريقة من بين اسنانه ولا يحرك يده عند الكلام . ويجلس في المقام الادنى ولا يسامر الحكّام . من مثل هذه المناقب يعرف المبتدئ المستقيم الذي انّما امّ المحابس إحرازاً لها (للمناقب) .

الباب الثاني

في العمل الروحي الواجب فعله في القلالي وفيه عشرة فصول

﴿ الفصل الاول : في قوانين السكن في القلّيّة ﴾

يجب ان يكون الجلوس في القلّيّة بافراز وليس دائماً كما يحتبس الكثيرون غير متمتعين أمراً ما مع ان الغرض المبتغى من ذلك هو توقّع نعمة الله تعالى التي تنير العقل ومشاهدة الروحيين بطبائعهم والائتلاف معهم وغير ذلك من الامور العظيمة .

امّا قوانين سكنى القلالي فهي : الصمت والاستحرار الحقيقي في الطلب والتأمل والمطالعة والمذيذ الدائم وتلاوة الصلوات المفروضة باوقات معلومة والسهر والنوح والصوم وعمل اليد والسياحة وحفظ القلب من الآلام الشريرة وهي الضجر ، النهم ، الشبق ، الغضب ، الحقد ، الحسد ، الملذات ، المجد الباطل ، الرياء ، الكبرياء ، الفخر ، التوبيخ . فمتى تنقّى القلب من هذه الشرور ، لزم عن ذلك أن يتزيّن بأنواع المحاسن .

هذا والمرضى ، فضلاً عمّا يُحتاط لهم من الاسباب المؤذية ، يجب ان يُرفدوا بالمقوّيات وهي محبّة العلم والايمان والشكر والرجاء ومخافة الله والمسكنة والاتكال ونقاوة الافكار وتذكر الموت . فهذه هي تدابير الاتقياء القلوب الذين يعاينون الله وها نحن نوضح كلّا منها في كلامنا التالي .

﴿ الفصل الثاني : في الصمت ﴾

لقد أعظم العقلاء الصمت واكبروه دون سائر الفضائل . قال فلديس السعيد : سألت يوماً الانبا سرمطا فقلت له : اني لا أعمل شيئاً مما يعمله الرهبان

... واما متى سألني وجهي : احس في نفسك راحة ما تستطيع ان تحب وانا واثق أنك بذلك تتمجد مثل اسطونيوس .

والصمت كثير الفوائد واعظم هذه الفوائد اللذة الروحية التي يكتسبها العقل بمعرفة الطبع الالهي والنجاة من الافكار العالمية التي تعوج الخدمة الروحية والافلات من ثلب الاصحاب وملازمة الاثمة والمداهنة والابتعاد عن مشاهدة المنكرات والتنكيب عن سمع المستقبحات التي تتمكن من الطبع بسهولة وهيهات ان تعود تفارقه لان المرء يقتبس كثيرًا من الشر اليسير وقليلًا من الفضل الغزير ذلك لمضايقة الناس المتصنتين كما قيل : ان حيوان البرّ لا يُضرب بالعصا وأيائلَ الجبال لا تنام امام الجزاز ؛ لان الوحش اذا دنا من النسور نزعوهُ جلده والنسر الذي يسكن القرى يعميه الدخان .

والمسامرة فوائد جمّة منها التعلُّم ومساعدة الضعفاء والدرس والتخرُّج واحتمال مضرّة اهل الغضب والحُنكة التي يكسبها الاختبار . فهذه الفوائد ، بعد ان يكتسبها المبتدئ في المحابس التي تمحصه تمحيص البوتقة للذهب ، يجب ان يختار الصمت والاحتباس في القلّية .

يليق بالحبيس ان يتغلّب على حبّ المسامرة ويعتاد ملازمة القلّية وان لا يلقى احدًا ما خلا ايام الآحاد التي يتناول فيها الاسرار . ولا يدع احدًا يطأ ارض قلّيته خارجاً عن الضرورة ؛ لان كثيرين ابتدأوا بالاعمال الشاقة وانتهوا بحياة ملومة لمسامرتهم اهل العالم ومعاطاتهم مع النساء المثريات وتعليمهم اياهن ؛ مدّعين علم المزمعات ومعرفة الخفيّات ، حتى أمست قلاليهم محفلًا لاهل المدن والقرى ، فهووا من سماء الحياة المنيرة الى حضيض الاعمال المظلمة .

الفصل الثالث : في العبادة الرباعيّة الانواع

وهي الدعاء . والذكر . والقراءة . والتأمل

الدعاء — يقوم (بعد ما يغفر المرء لمن اساء اليه) بان يلتفت الى الشرق رافعاً يديه ويطرق الى الارض خجلًا من ربه ويجأر بالدعاء قائلًا تكرارًا : « ارحمني اللهمّ انا الخاطئ . ربي اشفق عليّ . سيدي هبني ما يلائمني » . وهكذا يمنحه الله تعالى ما لم يخطر له طلبه .

ذكر الله تعالى — يقوم بتكرير الآي العشر الواردة في تسبحة التبيان[1] السداء ستُ من قوله : مبارك انت . واربع من قوله : باركوه . وتكرَّر هذه الآي ثلاثاً او سباعاً او اربعين بحسبما يسع الزمان والمكان . ومتى أخذت النفس تلذُّ حقاً بقراءة العهد الجديد ، فعوضاً عن التخيُّلات الجسدية ، يتبخر الهذيذ الروحيُّ في العقل ، فيبلغ رويداً رويداً الى الطهارة . وينبغي ان يتلى كلَّ يوم ستة فصول فصلٌ من كلٍ من بشارات الانجيل المقدس واعمال الرسل ورسائل بولس المغبوط ، حيث يبتدئ القارئ القراءة برسم الصليب الذي هو علامة ربنا ويسجد ثلاثاً عند نهاية كل فصل . ثم يضع الكتاب على المقرإ .

ومن لا يعرف القراءة عليه بالتأمل في اعمال الله تعالى . وانواع التأمل ثلاثة الاول ان يتأمل الانسان خطاياه ، لان الانسان ان لم يهدم نفسه اولًا فلا يبنيها. الثاني ان يتأمل المرء بعدالة احكام الله تعالى والعذاب المعدّ للمنافقين ، فتقوى حينذاك مخافة الله في قلبه . الثالث ان يلهج بذكر فيضان مراحم الله والخيرات المعدَّة للاخيار ، فيثمر الشكر في نفسه لله سبحانه وتعالى فيصبح كأنه في عالم الروح يسامر ملائكة النور وينادم نفوس الابرار .

﴿ الفصل الرابع : في الصلاة وترتيب الاوقات ﴾

اذا كان موسى العظيم لم يستطع ان يدنو من العليقة حتى خلع نعليه من رجليه ونبذ كل ما يخرج عن الحسّ فكيف يمكن العقل ان يعلي اذا لم يُعن من التشتت . نعم انه يجب جمع العقل اولًا لكنه ، بعد الارتياض الحقيقي وذوقه عذوبة الصلاة ، يتهيأ جمعه (جمع الفكر) بأوفر سهولة ، فيقف منذهلًا بالله تعالى . والصلاة النقية لا تقوم بكثرة الكلام كقوله تعالى : « متى صليتم لا تكونوا مهذارين مثل الوثنيين الذين يظنون انه بكثرة الكلام يستجاب لهم. (متى ٦:٧)

اما الصلاة الواجبة فهي ان يقف المرء ووجهه الى الشرق ، متكتف اليدين ، مجموع العقل ويتلو ثلاثاً صلاة : قدوس الله الخ وفي كل مرة يسجد راساً

(١) آل بيت حنيا

الصليب الى وجهه . ثم يقول ثلاثاً وهو يسجد : ربي ارحمني . ثم يقول : المجد لك يا ربنا المجد لك يا رجاءنا الابدي . ثم ينهض ويتلو صلاة : ابانا الذي في السماوات مختتماً بها الصلاة .

اما الصلوات الواجبة فهي سبع الاولى صلاة الصبح عند مشرق الشمس ويلحق بها اربعة فصول من الانجيل ويصرف الى الساعة الثالثة بالتضرع والتأمل . ثم تتلى الصلاة الثانية وهي صلاة الساعة الثالثة وما يبقى من بعد الساعة الثالثة يصرف بعمل اليد ان وجد عمل والّا فبالتأمل . ثم تتلى الصلاة الثالثة[1] وهي صلاة نصف النهار وتعقبها القيلولة التي تعين على السهر ليلا وتلاشي حرب شيطان الكسل الذي يستميل المتوحد الى النظر في الشمس ليرى اذا كانت ثابتة او متحركة . ثم يقضي وقته بعمل اليد الى ان يبلغ وقت تلاوة الصلاة الرابعة وهي صلاة الساعة التاسعة ويقرأ الفصول الثلاثة الباقية مستحراً بالطلب حتى المغيب . ثم يصلي الصلاة الخامسة وهي صلاة المساء ويظلّ متأملاً الى الساعة الثانية ليلاً . ثم يصلي الصلاة السادسة وهي صلاة الستار ويرقد حتى نصف الليل حيث ينهض يصلي الصلاة السابعة فاذا غلب عليه النعاس فليخطف قليلاً من النوم وهو جالس حتى نهاية الساعة العاشرة ليلاً ولا يعود يرقد بل يصرف ما بقي من الليل في التأمل بالله تعالى .

﴿ الفصل الخامس : في التسبيح والسهر ﴾

قبل كل من صلوات النهار الاربع وصلاة المساء ، فليتلُ الراهب تسبحتين وقبل الستار تسبحة واحدة وقبل صلاة الليل اربع تسبحات اما السهر فيطول ويقصر بحسب طاقة الراهب فان كثيرين يسهرون ثلث الليل ساعتين من اوله وساعتين من آخره وينامون ثلثيه الباقيين . وآخرون يسهرون نصف الليل وينامون نصفه الآخر . اما الكاملون ، مثل الانبا ارسانيوس ، فيسهرون الليل كله . ومما يعين على السهر قلة الاكل والعمل والقيلولة ولذلك يلزم ان يحمّل الجسد طاقته من الاعمال ، لاننا مأمورون بقتل الآلام لا بقتل الحياة اذن من تُوهِيه الاعمال فليرح جسده وقواه ثم يعود الى العمل .

---

(١) هكذا كان نظام الصلوات قديماً على ما يظهر .

بعض الرهبان يركعون اربعاً بعد صلاة الستار وبعضهم يسجدون اربعين بعد صلاة الصبح . اما التسبيح فيجب ان يقترن بالبكاء وسبب البكاء انما يكون تواضع القلب واشتعال النفس بمحبة الله . ان احد الرهبان رأى حلماً كأنه يسبح قدام داود بن يسى ، فقال له داود : اني لمتعجب بتسبيحك وقد تعلمت ذلك انا ، انما لم اتعلم كيف انك تسبح وتبكي معاً . والبكاء لا يمكن ان يصدر الا عن الفهم ولهذا قيل : يجب ان نقلل شيئاً من التسبيح ولتقف النفس المستنيرة قليلاً عند التأمل .

هذا ويوجد رهبان يتممون التسابيح كلها في سنة واحدة وغيرهم يكملها في شهر . اما الضعفاء فليس عن زيادة الفهم يقللون من التسبيح ، بل ذلك منهم جرياً مع شيطان الكسل الذي يحاربهم فيكتفون بتلاوة مزمور : سبحوا الرب يا جميع الشعوب وامدحوه يا سائر الامم (مزمور ١١٦ : ١) متعللين بأن الرب تعالى ينظر الى استعداد القلب ، لا الى كمية التسبيح ، فيجازي فعلة الساعة الحادية عشرة ، جزاء فعلة الساعة الاولى الذين حملوا ثقل النهار وحره . وفريق من الرهبان غير الحبيرين يعتبرون من الاعمال تقدمة القربان فقط . ولا يعتدون بكلام النوافير مثل قوله : كلما اجتمعتم باسمي . وكقوله : لك أحنى عبيدك رؤوسهم الى غير ذلك فهذا الفريق ليس باهل للاجتماع .

﴿ الفصل السادس : في الصوم ﴾

اذا كانت كثرة المآكل تتخم وبأبخرتها تظلم عيني النفس حتى لا تدعها تنظر الامور الروحية ، فالامساك عن بعضها يبرر العقل فيضحي اهلاً لتصور الروحيات .

للصوم ثلاث درجات : عامة . وخاصة . وأخص . فالعامة ان لا يأكل المرء او يشرب مدى النهار ، بحسب عوائد الشرقيين . او ان لا يأكل نهاراً من الحيوانات وزوائدها بحسب عوائد الغربيين . فاولئك يقتاتون بالبقول مساء وهؤلاء نهاراً . ولهذا النوع من الصوم قوانين ؛ مثل ان يقصد المرء الصوم من الصباح لان كثيرين لا يأكلون اتفاقاً فلا يعدون صائمين . ويلزم ان يحذر الصائم ان يسقط في حلقومه اي مأكل او مشرب كان ، لئلا يخطر الى قيئه ، اللهم الا في المرض .

ودرجة الصوم خاصة يتفرد بها الرهبان الذين فضلاً عن صوم البطن يصومون عن الحركات المؤذية . ولهذا الصوم قواعد مثل حجب البصر عن المناظر السمجة وضبط اللسان عن الكلام الاثيم وسدّ الاذن عن استماع المسامرة والكلام الدنس.

اما درجة الصوم الاخص فيتفرّد بها الكاملون الذين فضلاً عن صوم البطن والحواس يصومون عن الافكار الدنسة . ولهذا الصوم قانون واحد وهو استئصال شأفة كل هاجس عالميّ من عمق القلب . فهذا النوع من الصوم ولو كان إكماله عسراً بالارتياض يسهله والاعتياد يهوّنه كما قيل : انه يتهيأ للطبع ان يتطبع على ما تهوى ، فيستطيع ان يحمل ما تحمّله . والقوانين الرسلية تأمر : انه اذا صام الاكليريكي السبت او الاحد ما خلا سبت البشارة[1] فليحرم. والآباء الذين التأموا في عنجر يقولون : إن بلغ ظنُّ الناسك ان يصوم الاحد فليكن محروماً . إذن يجب على الراهب ان يفطر الساعة الثالثة من السبت والاحد وه على كسرة صغيرة ويتعشّى مساء ، ليس لان الاكل يجدّد بل تنسيماً للشريعة .

﴿ الفصل السابع : في عمل اليد ﴾

ان العقلاء يثنون فضل عمل اليد فالانبا انطونيوس حينما ضجر ، تراءى له ملاك يضفر الحوص . ثم وقف عن عمله وصلّى ثم عاد الى العمل ، ثم قام فصلّى وقال : « يا انطونيوس اصنع هكذا فتحيا » . قال الانبا أتير للانبا انبسطيون : « ضيّق جوفك وأتقن عمل يديك » . وقال آخر : « لا تسل نعمة من احد ، بل فلتكفك يداك مؤونة » . اما الذين يضربون عن الشغل عملاً بقول الرب الآمر : أن ننتشبه بطير السما. التي لا تزرع ولا تحصد وأن نماثل مريم التي رغماً عن عدم عملها قد مدحها الربّ اكثر من مرتا التي كانت مجتهدةً بكثرة الخدمة ، فنجيبهم ان هذا يليق بالكاملين الذين قد اقتنوا العمل الروحيّ كاملاً ، لا بالراهب الذي لا يكون قد اقتنى هذه الصفات ، جرياً مع آلام الملذات التي يولدها فيه الكسل حتى لا يستطيع ان يطيل المكث في قلّيته .

ان بولس السيد ولو كان له ان يعيش من الشعب الذي كان يرئسه ، فمع

---

(١) ربما اراد بذلك سبت النور .

ذلك لم ياكل خبزاً من اهل تسالونيكية مجاناً ؛ لكنه كان يكد ليلاً ونهاراً ، لئلا يثقل على احد منهم . وسائر الرسل كانوا يصيدون السمك والاخوة الجبليُّون كانوا يحصدون مع العملة وآخرون يحيكون الجوالق والحصر وهنا ينبغي للراهب ان لا يمدح ما يبيعه ، بل عليه ان يبيّن عيوبه ولا يطلب ثمنه اكثر مما ينبغي . ويلزم ان يبيعه من المحتاجين والمعوزين .

اما الاكليريكيون فيباح لهم ان لا يشتغلوا ؛ لان الذين يخدمون المقدس ، فمن المقدس يقتاتون والذين يلازمون المذبح يقاسمون المذبح . اما الآباء (اي الرعاة هم) فوإن كان لهم ان يكلفوا حاجاتهم من رعاياهم فالأجدى لهم ان يشتغلوا ولا يثقلوا على احد. هذا والكاتب[1] يقرّ الآن بخطائه قائلاً : اني اعلم ولا اتعلم اكتب وأمحي ما اكتب اكرز ولا اعمل بما اكرز اعظ وافعل خلاف ما اعظ .

الفصل الثامن : في العزلة

العزلة نوعان جسدية وروحيَّة ، فالجسدية هي انتقال الجسد من بيت الوالدين الى مكان معتزل . والروحيَّة هي انتقال الفكر من عالم الفساد الى ملكوت السماء ؛ حيث تقطن الملائكة . والعزلة الجسدية مذمومةٌ اذا لم تقترن بالهرب من ضرر النفس ويصحبها اكتساب الفضل الروحي .

وضرر النفس اربعة انواع الاول الاضطهاد لاجل الاعتراف بالايمان . الثاني تلب الإخوة حينما لا يجد المثلوب سبيلاً الى تبرير ضميره امامهم . الثالث مايصيب الراهب من وفرة المدح حيث يشتهر على ما قال الانبا أوجريس[2] : اذا كانت قلّيتك مطروقةً فاهجرها . الرابع المحاربة الزنائيَّة حيث يقطن الراهب .

اما المنفعة الروحية فعلى ثلاثة انواع الاول العلم الضروري . الثاني معاشرة الفضلاء . الثالث التبرُّك من المقامات المقدسة . فهذه هي الوسائط التي تجعل العزلة نقيَّةً ومن لا يتذرَّع بها ، بل يشرع بالتلهّي والهرب من كرب الاحتباس او الحاجة او لما يناله من الاحتقار حيث يكون فهذا يُذنّب وانما يدفعه الى ذلك الشيطان المضلُّ فيشتت عقله الى محل فمحل ، ويزين له اولاً ان لا خطأ

١) اي المؤلف يعترف بخطائه .
٢) من الآباء السيّاح .

في ما يفتكر به ؟ الى ان يصرعه في الزنا. او الغضب او الكآبة وقطع الرجاء.

يجب على من يذهب ليزور احد الآباء ان يجتاز طريقه متذكرًا الله ولا يهمل احدى الصلوات . وكلما بلغ قريـةً أو مدينةً فليسبق اولًا الى زيارة كنيستها ولا يقم ثمَّ اكثر من ثلاثة ايام ومتى وصل قليَّة ذلك الاب ، فلا يقرع بابها بل يجلس خارجًا الى ان يشعر هو به ويدعوه فيدنو منـه باتضاع ويسلّم عليه بوداعة ولا يتكلم الى ان يُسأل وليجاوب برزانة على ما يُسأل فقط . واذا دعا الامر فليسل بأدب ولا يمكث عنـد ذلك الاب اكثر من يوم . واذا سُئل عن حالة مكانه فليقصّ اخبار اتقيائه واصفيائه ولا يأتِ بتةً على ذكر فراديسه وخمائله او خصب اثماره واشجاره ، لئلا يهاب بجب الثلهي وشهوة البطن .

والنقباء الآباء يعتدُّون نوع الفضل الثالث[1] مستمرًا فيقولون : ان قوة الله تعالى المكنونة في عظـام القديسين تنتشر في كل مكان . فاحد الآباء الشيوخ حينما سأله تلميذه قائلًا : ابتِ ارغب ان ازور اورشليم . اجابه : بني انك لفي ضلال مبين هوذا كلٌ يقتصب ذاته ليصعد الى اورشليم العليا وأنت تجتهد لتذهب الى اورشليم السفلى . هوذا تأتي ساعة ليس في هذا الجبل ولا في اورشليم تسجدون للآب لان الله روح والذين يسجدون له ينبغي ان يسجدوا له بالروح والحق (يوحنا ٤ : ٢١و٢٢و٢٣) فامكث بنيَّ اذن في قلايتك واجتهد ان ترى في داخلك ذلك القريب من الجميع. (ها ملكوت الله في داخلكم هم)

﴿ الفصل التاسع : في الآلام الشريرة ﴾

يجب ان نتكلم الآن في الآلام الشريرة التي تدهم الراهب في قليَّتـه وينبغي ان يتطهر منها وهذه هي :

١ً ان الابالسة لا يصبرون ان يضطروا المتوحد الى اكمال خدمته المعتادة، بينما يكون ثقيلًا على ذاته لا يستطيع ذلك فينهض يرتم مهيظًا نفسه بالاعمال ؛ فيكون مثله اذ ذاك مثل من ينتشل الماء. ويصبه في زقٍ مثقوب. فيلاثمه والحالة

١) زيارة الاماكن المقدسة والتبرك منها .

هذه ، ان يريح جسده قدر ما بالاعمال الجسدية بالاعمال الروحية . على ان كثيرين عملوا اعمالاً عظيمة ، لكنهم لم يدركوا طريق الله تعالى ، اذ لم يعملوها بفطنة .

٢ – النوم

هذا الداء يداوى بالجوع الذي به يتنقى العقل وتُدرك المرآت الروحية وتتضع النفس وتخمد الشهوات ويخف ثقل النوم . اما قلة الاكل فتكون تدريجاً . فمن يأكل مثلاً في يومه قرصاً فليقلل منه يومياً جزءاً من ستين جزءاً فلا يأتي عليه الشهر الا وقد انقص نصف اكله ، بدون ان يناله مضرة . وبعض الرهبان يأكلون يومياً رطلاً من الخبز وبعضهم ثلثي الرطل وبعضهم نصفهُ واكثرهم يأكلون في اليوم مرةً واحدةً . ومنهم من يأكلون مساء ويطوون مساء . ومنهم من يأكلون الاحد ويصومون الى الاحد التالي . اما الناذرون فيقتصرون في اكلهم عن البيض واللبن والسمن والجبن والسمك فيتعذبون بعذابين : حرمان شهوة الاكل اللذيذ التي تدفعهم الى فسخ نذرهم والمجد الفارغ الذي يحملهم على اعظام فضائلهم . ومتى غلب احد هذين الالمين على احدهم ، يتهافت الى ان يأكل جهاراً ما لم يكن يأكله خفية . وهذان الداءان يداويان بان لا يفسخ الناذر نذره ولا يكفي ذاته كلَّ حاجته .

٣ – في الشبق

ان شيطان الزنا يري الراهب مشاهد دنسة ويسمعه اقوالاً رجسة مع اجوبتها السمجة ويخيل اليه ان ذلك يجري فعلاً ، فيجسُّ اللحم متلقاً الى ان يجذله في حمأة الدنس . فهذا الداء يداوى بالجوع المستمر والانقطاع عن مسامرة النساء والاحداث والنظر الى وجوههم . قال الانبا آمون . انحدرت الى البرية وانا حدث فطردني الانبا فنوطيس البسيط قائلاً : اني لا أدع وجوه الاحداث التي تحاكي وجوه النساء ان تسكن حيث المناسك . والقديس باسيليوس يقول : اذا قال امرء انه لا يتأذى من مسامرة النساء ، فهذا اما ليس برجل او لا يشعر انه يضارع السكران الذي يدّعي استقامة العقل . وهو منها مناط الثريا . ويستثنى من هذا الحكم الكاملون الذين كما انه لا يعرض لهم فكرٌ دنسٌ بتفرسهم في نيرات السماء وازهار الارض ، كذلك لا يختلج في البابهم هاجس اللذة لنظرهم الوجوه الحسنة والجمال الصقيل . ومن يستشفي من هذا

الداء في بداية امره يتألم بدون تخيل الشبه المزدوج ومن يتداوى عند انتصاف امره يحسّ بالحركة الطبيعيّة من دون ما تخيّل . وعند اكتمال الشفاء تتلاشى الحركة الطبيعية بتلاشاة افكار الألم الدنس .

٤ – الغضب

متى كان المرء خصمٌ اضعفُ منه ، تحتدم نار غضبه ويسخن دم قلبه ويحمرُّ وجهه ومتى كان اقوى منه يرسب دمه في اعماق قلبه ويصفرُّ لونه وتتقلب حدّته خوفاً . وسبب الغضب عظمة الروح وكبرها والقطرسة والنهم . ويداوى هذا الداء بقوله تعالى : تعلّموا مني انني وديع ومتواضع القلب (متى ١١ : ٢٩). وبقوله جلّ شأنه : لا تغرب الشمس على غضبكم (افس ٤ : ٢٦) . وبان يكره المرء الجنون الذي يحدث له حال غضبه اذ ترتجف اعضاؤه ويتلجلج لسانه ويزبد فمه واذا لم ينل مأربه من خصمه فيجرّحه ويوسعهُ شتماً ويمزّق ثيابه ويرفس الارض برجليه ويكسّر القصاع والمائدة بالحجارة ويضرب الدابّة وان لبطئه لبطها وشحط اذنها وجرّها بذنبها واذا عوتب بذلك . اعتذر عن نفسه قائلًا : « انني لا استطيع ان أسمع او أرى ما لا يليق » .

٥ – في الحقد

الحقد يتولّد من الحدّة . ومتى ربّي يلد ثلاث بنات : ١ حسد المرء الحاقدَ عليه ، ٢ بغضه له ، ٣ فرحه بمصائبه ، ٤ ثلبه له ، ٥ تسبيبه الخسارة له ، ٦ معارضته لرجحه ، ٧ احتقاره له ، ٨ هزؤه به . قال احدهم : اذا ظنّ الحقود انه تثبّ ، اشبه بذلك مَنْ يحلم انه ماشٍ . وهذا الداء يداوى باخماد الحدّة وتكريم الحاقد على ما قال الانبا اوجريس : ان يعقوب أرضى اخاه عيسو بالهدايا . اما نحن لحاجتنا فبمائدة بسيطة ننال وطرنا .

٦ – في الحسد

ان الانسان لا يحسد سوى من فاقه بأيّ فضل كان . فكل من يرى خيرًا في احد ويريد زواله عنه فهو حسود . والّا فان رغب ان يكون مثله فهو غيور صالح ، فيحسد الانسان من يبغضه او من لا يهوى ان يكون قرنه ، او من يكون اعلى منه او من يطلب لذاته نعمةً نالها سواه . ومن يريد ان

يكون فريد عصره . ومن لا يحب العلم وانسك هو حسود شرير لهوى . ومن رأى امرءا يتعلم او ينسك فتألم وامتعض فهو حسود ايضاً . وهذا الداء يداوى بأن يعلم المرء ان الحسد يغم الحاسد ويفرح المحسود بما خصَّ به من الخير .

٧ً – في الشهوات

الشهوات تسرُّ الانسان وتريحه في هذه الحياة الدنيا غير انها لا تدعهُ يستعدُّ تلك الحياة الابدية . وتقسم الشهوات الى لزومية كالقوت والكسوة والامراة والمسكن . والى طبيعية كالجنس والاهل . والى نظامية كالرئاسة والغنى والعبيد والأماء والجنات والارضين . وعلى ما قال الانبا فومون : من ذلك الحكمة المنفردة بدون عمل ومثالها علم المعلمين الذين يحصرون غايتهم في ابتزاز اموال التلامذة لا يفيدونهم شيئاً . ونقول باختصار : كما انه لا يتهيأ للانسان ان يرى صورتهُ في المياه العكرة ، وكذلك لا يتسنى للعقل ان يرى بذاته ربَّهُ ، اذا لم تُجلَ مرآته من صداء كل شهوة . فما أحقَّ الانسانَ المسافر في بحر هذه الدنيا ان يُمثِّل بمن يفرح أو يُحزن في الحلم ثم لا يلبث ان يتنبه . فلا يرى لذلك أثرًا .

٨ً – في الشراهة

لو علم الانسان معاطب الغنى ، لما كدَّ النفس سعياً وراءه . أما هذه المعاطب فهي : المضارُّ والمكائد التي ينصبها له المتسلطون واللصوص وحسد الاقران وما يتبع ذلك من الاعمال المذمومة من مثل التهم والشبق والمجيد الفارغ وما يتولَّد من ذلك مثل الكذب والظلم والتعطُّل من الاعمال الروحية ، خاصةً ، اذ لا يستطيع المرء ان يعبد ربَّين . ومتى بحث الانسان عمَّا خُلق الذهب لاجله قام العقل الملكيُّ يجيب : ذلك لاجل سد الحاجات الضرورية . اما العقل الشيطاني فيقول : ذلك لاجل البذخ والتلذُّذ . وهذا الداء يداوى بالاقتصاد والاكتفاء بما وُهبنا من الرزق وبمقابلة لذة الاغنياء العابرة بعظمة القاهرين نفوسهم وبنظر المرء الى الادنى منه لا الى الاعلى منه .

٩ً – في المجد الفارغ

محبة المجد الفارغ هي اشتها. الكرامة بتشهير الفضيلة ، والمراؤون يجتهدون في اكتساب المجد الفارغ باعمال النسك الشاقّة الكاذبة . ومن الناس من لا يحفلون بالمجد ، لكنهم يفرحون متى مُدحوا . وفئةٌ يحزنون عند ذلك غير انهم يرغبونه ولا ينبذونه . وبعض يهربون من حيث يُمجّدون . والكاملون يستاؤون من تمجيدهم . ورهطٌ يغتمّون متى اتّهموا ويحقدون على متهنيهم . وقومٌ يحزنون لذلك فقط . وتَزْرٌ منهم يحسبون الامتهان كالمجد . وآخرون يحبون متهنيهم لانه بذلك يكشف لهم عيوبهم فيستشفون منها. وداء محبة المجد الفارغ يداوى بعكف المرء على ما يسوّد وجهه ويخفض من كرامته وبأن يماثل الميت الذي لا يفرح بالمجد ولا يحزن بالهوان . وبأن يخدم ربّه سرًّا ويكون في الظاهر كاحد الناس . والرجل الفاضل يقول لمن يمجّده : لو تعلمني كما اعلمُ نفسي لما مجدتني .

١٠ً – في الرياء

وهو ضلالة تقوم بكتم السرائر المقوتة وتبيين الظواهر المحبوبة ؛ كما يفعل اولئك الذين يشنجون اعضاءهم مظهرين ان ذلك اصابهم بسبب كثرة السجود. ويشدّون أحقاءهم بالحبل ويشنجون أصواتهم ويسكتون وهم يبثون الشرّ في قلوبهم ويأتون بالمرتلين يرتلون لهم ليجتذبوا السذّج الى التبرك منهم ، قصدَ ان يتكهّنوا لهم . وما يدفع الى الرياء انما هو الطمع بكسب المجد والدرهم . فهذا الداء يداوى ببغض المجد والفرح بالعار وبقطع الامل من ارباح البشر . قال الانبا دانيال : « نظرت يوماً الى قلّية الانبا فومون فرأيته واقفاً في الباب ولمّا احسّ بي هرول فجلس على الحوائط » . وبعض الاحيان يبيّن الافاضل اعمالهم طمعاً أن يتشبّه بهم الناظرون كما قال الانبا مقريس الانبا اوجريس: اني لم اشبع خبزًا ولا نوماً مدى عشرين عاماً .

١١ً – في الكبرياء

وهي خُيلاء نفسيّةٌ يرى بها الانسان نفسه ارفعَ من غيره ، وفرعون ترفّع

على الله تعالى قائلاً : ان بيلوس خاتمي هو وانا صنعته . وقد تعظم على عبيده (اي عبيد الرب) مضطهدوهم . وذوو العقول العمياء يتعظّمون على اقرانهم فيحسبون فضلهم نقصاً . وعلة الكبرياء الفخر والحقد والحسد التي لا تدع الانسان يتّضع لصاحبه ولا أن يماثله مقاماً . وعلاماتها محبة التزيّن والركوب والسلام في الاسواق والتصدّر في الولائم . وان لا يسير المرء منفرداً وان لا يذهب عند من هو افضل منه وأن يشمئزّ من ان يجتمع بمن يجتمعون على المياه والتدفئة . ويكره عمل اليد ولا يحمل امتعته ، بل يكلف غيره ذلك . اما شفاء هذا الداء فقد ذكرنا طريقته عند كلامنا في الاتضاع .

١٢ً – في الافتخار

وهو مباهاة المرء بما يكون عليه من الصلاح كالمعرفة والعلم والاعمال الصالحة والجمال والغنى والعزّة والنسب والبراعة . والكبرياء تفارق الافتخار بكونها تقوم بمقابلة الانسان نفسه بآخر بخلاف الافتخار الذي يكون بدون ذلك . فهو تجاه الكبرياء كالولد تجاه الرجل . وهذا الداء يداوى بأن يعتقد المرء ان جميع ما هو له من الكمال انما هو من الله تعالى وليس من قبل نفسه . اذن من يفتخر فليفتخر بالرب .

ان الانبا فرمون لمّا سمع احد الاخوة يقول : كم لي من السنين لم ادخل البلدة . اجابهُ لو كنت انا بقرب هذه البلدة لدخلتها ليلاً وطفت بها لئلا افتخر بكوني لم ادخلها .

١٣ً – في التهذيب

تهذيب الناس يختصّ بالرعاة لا بالرهبان الذين ينبغي لهم أن يقصروا اهتمامهم على نفوسهم . قال الانبا فرمون : اني اذا نظرت اخاً يخطئ لا أوبّخهُ فان لامني الربُّ على ذلك أجبته : انت علمتني أن أخرج الخشبة من عيني اولاً ثم اخرج القذى من عين اخي .

﴿ الفصل العاشر : في الاعمال الصالحة ﴾

نأتي هنا على ذكر الاعمال التي سبقنا فعدّدناها تلك التي تستحق بها النفس الاشتراك في ذلك العيد الروحي حيث يتبلّج الصبح ويظهر المولى الحسن . وهذه الاعمال هي :

١ً – العلم

لا عامل اقوى على اقتلاع الفوائد الشريرة من النفس ، كالهيام بحب العلم . فيجب على من يتعلم ان يبتدئ بالمزامير . ثم بالعهد العتيق فالعهد الجديد . ثم يتخرّج بكتب الفقه التي نصفها هنا باختصار فهي تفقهه ليدرك قوام جسده فيروضه بالدروس الصعبة الى ان يستأصل من نفسه العيوب المشينة ويغرس عوضها الفوائد المزيّنة . وينبغي ان يكون العلم صالحاً ذلك بان لا يستعبد صاحبه للملذات وان لا يعاشر الرؤساء ويتقرّب منهم . وان لا يعجل بالجواب متى سُئل وان يعلّم بمثله اكثر منه بقوله . ويوجب تقديم الفروض على النوافل.

٢ً – في الايمان

الايمان في رأي القديس بولس هو الايقان بالامور المرجوّة كانها قد تمت بالفعل وظهور ما لا يرى (عبرانيين ١١ : ١) . فبذا التحديد يلائم كلّ ايمان . امّا الايمان الذي نريده هنا فهو تسليم العقل للتعليم الانجيلي ويتمّ ذلك باعتراف اللسان به وبحفظ الوصايا . ومن حيث ان مسيحيي هذا العصر متمسكون بالامانة التي أثبتت في نيقية ، فيجب الاقتصاد على التشبث بها دون سواها ، ورذل سائر الامانات التي تختصّ بالطبائع والاقانيم . أمّا الرهبان الحقيقيون فيتكلّمون عن الأعمال « الرهبانية » فقط ولا يدرسون مسئلة الايمان لكنّهم يلتزمون بالاعتراف أنّ في المسيح ، جل شأنه ، اقنوماً واحداً وطبيعتين .

٣ – في الشكر

وهو الشكر على النعمة الحالية او المتوقّعة وما يدفع المرء الى الشكر على النعمة انما هو معرفته قيمتها ونوعها ، فيقابلها بشكرٍ يعادلها . والنعمة إمّا حقيقية وامّا مجازيّة والحقيقية امّا مقصودة لذاتها مثل السرور الدائم في

النعم الروحي وربما غير مقصودة لذاتها كالمعرفة الراسخة . والعمل الفاضل مما يُطلب لاجل السرور الدائم وكذلك النعمة المجازيّة امّا تقصد لذاتها كالحياة والقوة والشفاء والجمال او تقصد لاجل غيرها كالكرامة والغنى والاهلين والمرتبين الذين يلتمسون تسهيلًا لاسباب الحياة . وكما ان معرفة النعمة هي سبب الشكر عليها كذلك عدم معرفتها هو سبب جحودها ذلك مثل الذين لا يعرفون نعمة الهواء فلا يشكرونها مع انهم اذا احتبس الهواء اختنقوا ومتى انتشر عرفوا نعمتهُ فبادروا الى شكرها . امّا الانام الافاضل فيشكرون حتى في الشدائد لانهم يدرون انه لا تحدث شدّة الّا ويكون قد حدث اعظم منها، فيشكرونه تعالى لانه لم يدفعهم الى شدة اعظم . ويضاعفون شكرهم له عزَّ وجلَّ لانهم بواسطة الشدة الزائلة ينجون من تلك الشدة الدائمة .

٤ – في الرجاء

الرجاء هو تَوَقان النفس الى ما هو عزيز عليها . وبما ان العزيز الخاص هو ذلك السرور الدائم ، فما يبلغ بالمرء اليه انما هو كفاءة الفضل والنسك وصفاء القلب ونقاء النفس . واذا كان الله سبحانه وتعالى هيَّأ للجسد البالي نعمةً جلّى لا قياس لها ، فكيف يمنع نعمته عن النفس التي تفوق الجسد فضلًا . ان مجرَّد الافتكار يزيد الرجاء توكيدًا والامل توطيدًا .

٥ – في مخافة الله

وهي غمّة القلب بسبب تيقُّن وجود الشدّة العتيدة وعلّتها معرفة المرء بخطاياه وعلاماتها الظاهرة اصفرار الوجه والهزال وعلاماتها الباطنة ، بغض الخطيئة . والشدة امّا جسدية وامّا روحية . فالخوف من الاولى يزدله العقلاء ، فيقولون : « اننا لم نأخذ قط روح المخافة ، فلا يليق بنا ان نخشى ولو لصقت السماء بالارض » . امّا الخوف من الشدة الروحيَّة فيمدحه الحكماء ويقولون : « من لا يخاف الله يخشى طَيْفَ نفسه » . والخوف متى تمكَّن من قلب المرء ، يسوقهُ الى الحذر من اعمال كثيرة غير ملومة .

٦ – في الفقر

ان العقلاء يفضلون الفقر مع الصبر على الغنى مع الرحمة فيقولون : « ان

الراهب يفوق المتصدقين درجةً . اما اهل العالم فبعكس ذلك » . والفقير الذي يصبر على حاجته ، فهو اهل للتطويبات الانجيلية . فمثل هذا ان نال كفافه لم يتسوَّل وان فضل عنه اعطى المحتاجين ولا يستعطي ابدًا من الائمة والمتكبرين . وان شاهد امرءًا احوج منه يدعه يأخذ ما كان يؤمل هو نفسهُ باخذهِ . وان كان قديرًا على الصلة لم يتسوَّل . ويجب على من يتصدَّق ان يعطي قبل ان يُسأل وان يخفي صدقته ما استطاع ، فيعطي الاعمى أو يلقي صدقته في سبيل الفقير او يصرُّها برقعةٍ . ويتصدَّق من عمله المجرور على من لا يقدرون ان يتجولوا فيستطون . والاستطاء . اثم ان قصر المستطي اتكاله على البشر دون الله تعالى . ومثل هذا يسيء غالبًا الى الناس .

٧ – في الاتكال

وهو القاء المرء تدبيره الى العناية الربانية كالقاء العناية بالولد الى مدبّره حتى يأتي الوقت الذي حدَّه ابوه . ومثل القاء الولد اتكاله على امه كقولهِ : « انت اتكالي من الرحم ورجائي من ثديي امي » . او مثل اتكال البهيمة على صاحبها كقولهِ : « كنت وديعًا لا اعلم وصرت عندك كالبهيمة » والاتكال الاول واهنٌ لان الولد يدري انه متى بلغ اشدَّه يصبح بلا احتياج الى مدبّره . والاتكال الثاني اقوى من الاول ؛ لان الولد يعلم انه ولو بلغ اشدَّه ، لا يستغني عن امه . والاتكال الثالث اقوى من كليهما لانه لا يأتي زمن تتكل فيه البهيمة على نفسها ، لا على صاحبها . والابرار يتكلون اختياريًا على الرب في المصائب التي تُمرضهم والتي لا تمرضهم متيقنين ان الله تعالى هو أجرهم العظيم . هكذا المختارون ، قصروا اتكالهم على الرب منقذهم مثل دانيال ، ايام أُلقي في جبّ الاسد ، وفتيان حنانيا آوانَ طرحوا في أتون النار .

٨ في نقاوة الافكار

كل فكر لا يكون لله ، او لاجل الله ، لا يكون نقيًا ؛ حتى اذا افتكر المرء بنقاوة فكره معتدًا بذلك ، امسى غير نقيّ الفكر . وشهوة البهرجات انما تصدر عن الافكار الغير النقية . قال الانبا فومون : « كما ان الذباب لا يقرب من القدر الفائرة كذلك لا تدنو الافكار الخبيثة من القلب المتأجج

ناراً ، يحب الله ، وقال ايضاً : « كما ان النفس لا تقنع بدون قاطع ، كذلك الافكار اذا لم تعطها سبيلاً » . وقال ايضاً : « اذا ألقيت الافكار الخبيثة في عمق القلب وهي كالعقرب وسددت عليها ماتت هناك سريعاً » . قال احد الاخوة للانبا ارسانيوس : « كيف وانت حكيم تسأل عن الافكار هذا الامي ، كانه الانبا مكاريوس ؟ فاجابه : « اني قد تعلمت آداب اليونان والرومان ولم أتعلم ألف بيت هذا الأمي .

٩ – في ذكر الموت

لا احد يتذكر الموت فيستسهل الخطأ . وربَّ انسان يقول : « اني أدلي المنزل واضع الموت امام عينيَّ قبل ان ارفعه » . وسبب عدم تذكر الموت هو عشق الحياة الزمنية ، لان من يحبُّ امراً يبغض نقيضهُ طبعاً ؛ حتى لا يشاء ان يفكر به البتة . وهذا الداء يشفى بان يحتسب المرء انَّ الانسان في هذا العالم كالحلم ، يشبه طيران طائر في الهواء لا يُعرف له سبيل . او يحاكي مخر السفينة في العباب ، فلا يبين لها اثر . او يضارع الندى سحراً ينضب ويجفُّ قبل الظهيرة . او يشابه الزهر الذي لا يكاد ينشأ او ينشقُّ حتى يبيس بمثل هذه الافكار تخمد نار محبة هذه الحياة الزمنية الزائلة ، فلا يفارق الموت الذهن فتستقبح الخطيئة .

الباب الثالث

في نواح الكاملين الروحيّ وفيه عشرة فصول

﴿ الفصل الاول : في حركة الكمال الاولى ﴾

بعد ان يتنقَّى الجسد باعمال النسك المتعبة ويَصْفو العقل وتسدُّ طاقات الحواس وكواه ويستنير مركز القلب ، تتراءى له الحمامة احياناً ، لا دائماً ، كالبرق الذي يُومض ويتوارى . وتتلمع امامه بجمالها ويحلي ثمرها حلقهُ فيدهش لمنظرها ويُسبى هياماً بها ، حتى يخيَّل اليه انه غير موجود ؛ فتظنُّ النفس انها تذوب في بوتقة محبة هذه الحمامة[1] . ومتى بلغت هذا الحدَّ تتقمص باتضاع بليغ ، حتى يحتسب الراهب نفسه مَدَرًا ورمادًا . فيذرف دموع الفرح والألم مدراراً بسبب

١) اشارة الى شيء من الانخطاف (extase) .

الموهبة والخوف ويحرص على التسبيح الافضل والسجود الاكمل مستعذبا ذلك ايّ استعذاب ، متذكرًا امثلة القديسين، مجهدًا النفس اقتداء بهم ، عاكفًا على اراحة المتضايقين وخدمة المرضى . وبما ان مثل هذه الامور تميلهُ عن مسامرة الحمامة يعود فيعكف على السكوت والصمت حتى لا يجيب الا على ما كان ضرورياً واجباً من الأسئلة ، بل يكره مخاطبة الناس كرهَهُ مخاطبة الاعداء ؟ واذ تراه الحمامة الغضّة الصبا ، القديمة الاجيال ، عاكفًا على مثل هذه ، تعود الى زيارتهِ فان لم يستسلم اليها بكليتهِ ، تزدجره لاكمةً اياه وبقدر ما يذوب شوقاً اليها تنبسط هي اليه او تنكمش عنه . امّا العالمُيّون الذين يقصرون اهتمامهم على العالميّات فيضربون مثلًا على ما تقدّم ويقولون : اذا رأت الحبيبة (في حبيبها) علامة الحب الراسخ ، تهرول اليه على رأسها لا على رجليها .

﴿ الفصل الثاني : في حركات الكمال الوسطى ﴾

بعد ان تتمّ حركات الكمال الراسخة ، تبدّل الحمامة تأثيراتها على العقل بنوع يلائم كل نفس تشتغف بها جاعلةً العقل قابلًا للأوحية فتفيض فيه اولًا ، معرفةُ المبروءات ، حتى بقدر ما تجعل الشمس الطبائع المحسوسة مَرئيّةً للعين ، تصير الحمامة الطبائع المعقولة منظورةً للنفس ، فينثني العقل عن كل ما في السماء وعلى الارض ، ويذوب حبّ الحمامة مبتغياً ان يلتصق بها وحدها . امّا هي ، فتى رأت اضطرامَ حبّهِ وانه قد تصفّى بالبوتقة كالذهب ، فلا تعود تتراءى له كالبرق السريع ، بل مثل كوكبٍ مغشّى بالغمام . غير انها تحتجب وقت الصلاة ، مضرمةً النفس سابيةً العقل فينطرح الرجل على الارض كالميت[1] . ثم ينهض متذكرًا منظرها فتنقشع الغمامة رويدا رويدًا ، فتستنير العين ويكون ان الكامل بهذا النهوض يشبه النائم وهو يتيقظ ويشبه اليقظان وهو نائم[2] .

﴿ الفصل الثالث : في حركات الكمال الكاملة ﴾

متى ما اعتادت النفس ما تقدّمنا فوصفنا من الامور ، يصبح العقل ذا دالّةٍ على الحمامة ، فيحدق بها مطمئنًا ويسامرها . فلا تعود تتراءى له كالبرق

---

١) اشارة الى نوع من الاغطاف

٢) اشارة الى هذه الآية : « اني نائمة وقلبي مستيقظ » (نشيد الانشاد)

الذهب او كأنها في غمامة كثيفة ، بل تحلُّ منه حلول اكبة من القلب . وكما انها حياة الازل ، فتظهر نفسها للعقل انها علة العلل وتدلي اليه بأسرار عجيبة فيعرف حينذاك الكلمة التي كان في البدء وان كلَّ شيء كان به (يوحنا ١ : ١) . ويعرف الحكمة الازلية وملائكة الله الذين هم ارواح الخدمة ، الذين يسجدون له مسبحين . ومتى امتلأ العقل من رؤيتهم وجلالهم وسرورهم ، يضحي مثلهم . وحينما تطير الحمامة والملائكة وانفس الابرار لخدمته (العقل) ويذهب هو بصحبتهم ، يبلغ حالاً الى سحابة النور الذي لا يدنى منه . ومتى ما توغَّل فيها يحتجب ، حيث يقرُّ في المقام الموسوي مزدهياً عجباً بجمال الرب سيد الجميع ولكثرة ما ينال من اللذَّة ، لا يعود يقوى ان ينعطف الى مكانه الاول ، الَّا اذا حلَّه ربه من الارتباط به . ومتى عاد فيسأل اعضاء الجسد بنار اللاهوت التي حلت به . ومتى ما اشتهى ولو قليلاً ، ان يصعد ، يُختطف الجسد معه ايضاً فلا يكاد ينخلع عنه كما لا يكاد ينخلع الحذاء من الرجلين .

الفصل الرابع : في وحدة العقل

متى اتَّحد العقل (بالاله) الصالح ، يرتقي من مجد الى مجد بالروح ، ناسياً ، ليس ما في العالم فقط ، بل نفسهُ ايضاً ، منتشياً بنور ذلك الخدر الذي هو مثال الله تعالى ، حيث يرتشف من كؤوس ذياك الخدر المترعة ، متذكرًا القول الكريم : انا والآب واحد (يوحنا ١٠ : ٣٠) انا في ابي وابي فيَّ . (يوحنا ١٤ : ١٠)

ان الحمامة تحضُّ العقل على اقتناء ذلك واشباهه بالآية الجليلة : ان سرًّا لي ولابنا بيتي . والرسول المغبوط قد رمز الى ذلك بقوله : وسمعت كلاماً لا يقدر بشر ان ينطق بمثله . وتلميذه ايريتاوس سلَّم تلميذه ديونسيوس قائلاً : « متى اتَّحد العقل بالاله الجواد ، نبذ عنه كل شيء ، حتى اسم الغرام والهيام . لان ما يكون هنا محبًّا ومحبوباً ، يضحي هناك محبوباً ومحبًّا فيأتي كلٌّ كُنية تعني التثنية مثل الابوَّة والبنوَّة والمسجِّد والمتسجَّد ، لانَّ العقل عندئذٍ لا يمجِّد ولا يتسجَّد » .

ان النقيب الالمعيَّ يبرهن على حقيقة ذلك من الجسم قائلاً كما اننا نعي المياه بقدر الاوعية وتنتشر اشعة الشمس بقدر الكوى وتأجج النار بقدر ما

تضرم به من المواد ويهبُّ الهواء بقدر ما يحبس منه في الظروف حتى اذا تلاشت هذه الأصونة والاسباب ، عاد كلٌ من المياه وسائر ما تقدَّم الى اصله الوحيد ، فهكذا اذا انحلَّت الاجساد ، عادت العقول الى الواحد الاحد . وكما ان الجسد يعود الى الاصل المأخوذ منه كذلك العقل يعود الى الله[1] لانه قبسة منه تعالى فيكون اذ ذاك ، تقدست اسماؤه ، كلًّا في الكل على ما علمنا اساتذتنا ومن هدونا الصراط المستقيم[2] .

الفصل الخامس : في دواعي المحبَّة

دواعي المحبة خمسة : ١ً تنازع البقاء ، ٢ً معرفة الجميل ٣ً ، الجمال الظاهر ، ٤ً الجمال الباطن ، ٥ً التشابه بالشكل ؛ بناء على ذلك يحبُّ الله بالافضل ، وذلك معلوم من ان الانسان اذا احبَّ المحافظة على نفسه احب اضطرارًا الله تعالى حافظَهُ الذي به نحيي ونتحرك .

واذا كان المرء يحبُّ من يحسن اليه على غير أمل الوفاء بجميله ، فاحرى ان يلتزم محبة الله الذي هيأ له ما يفوت العدَّ من الخيرات ، كنور الشمس والقمر والكواكب وإتلاف الهواء وغيث السحب ومياه الانهر والينابيع واثمار الارض والحيوانات باصنافها وسائر الاشياء مما لا يحصره حدٌ ولا يحصيه عدٌ .

واذا كان الجمال الظاهر يُحَبُّ فكيف لا يُحَبُّ ذاك المتوشح بلباس يتلألأ كالثلج وشعره كالصوف النقي وهو جالس على العرش المضطرم والعجلات المتوقدة والمركبة ذات الاربعة الوجوه[3] (دانيال ٧ : ٩) (وحزقيال ١ : ٦) يتراءى للانقياء القلوب ، مَن ، اذا استأهل المرء محبتهُ ، كفر بكل جمال ظاهر هائمًا به فقط .

واذا كان يحبُّ الجمال الباطن المتَّصف بمعرفة الاحاجيّ والمنزه عن آلام الخطيئة والراغب في البرارة بانواعها ، فمن لا يحبُّ مقدّس القديسين ومطهّر النفوس ، مَنْ علمُ سائر البرايا لا يعدل علمه .

---

١) هذا التعليم غير صحيح لان العقل اعني النفس برأها الله من لا شيء وليس من ذاته الالهيَّة التي لا تقبل تجزؤًا بتةً . ورأيه هذا يشمُّ منه المذهب الحلولي .

٢) رأيه الخاص .

٣) هذا ما يتصوره الخيال من التشابه تمثيلًا للعقل القاصر عن ادراك الكنه الالهي السامي سموًّا لا غاية بعده .

واذا كان شبيه الشكل يُحَبُّ ، فما أحق الانسان الذي لا يحبُّ ربَّهُ وخالقه على صورته ومثاله .

﴿ الفصل السادس : في لذّة المعرفة ﴾

كما ان لكلٍّ من حواس الانسان كالعين والذوق والنظر والسمع والشم ، لذة خاصة بالمحسوسات ، كذلك للعقل لذّة خاصة بالمعقولات . ولما لم يكن بين المعقولات اعجب واغرب واكمل من سيد الكائنات ، كانت اللذة التي تأتي عن معرفته تفوق سائر اللذات . وهذه لا يشتاقها الا من ذاقها ، كما ان الاصمَّ لا يشتاق ان يسمع ضرب القيثارة .

ومع ان عدم معرفة الله تعذّب فوق ما تعذّب الاوجاع ، فكثيرون لا يتعذبون بذلك ، شأن العضو الحدير الذي لا يحسُّ بالحرّ ولا بالقرّ .

ليس من انسان يهيم عقله بحب مولاه فتستطيع ان تستأثر به لذة شيء مما في العالم ولا احد يجد الله تعالى الّا وينبذ العالم بأسره .

اذا مُلح العقل بمحبة الربّ فلا يعود يتشوّش اصلاً لان من يخدم السادات ، يخلع عنهُ أسمال العبيد . فهذه حالة لذّة العقل بعد انفصاله تماماً عن المادّة ، على ما قال بولس المصطفى : اننا الآن ننظر بالمرآة بالالغاز امّا عندئذٍ فمواجهة . (١ كور ١٣ : ١٢) وقال القديس غريغوريوس : ان النفس الصالحة المحبة لله اذ تنفصل من الجسد ، تلذُّ لذّةً غريبةً وتسرُّ سروراً عجيباً ، اذ ينجلي لها ما كان قائماً .

﴿ الفصل السابع : في التربية على محبة الله ﴾

تربية محبة الله في النفس ، اذ يترقّى الانسان في الايمان والرجاء والمحبة وينشو بالامساك ، لاهجاً في اعمال الباري العجيبة . ويرى بعقله قدرة الله الضابطة الكل ، تجوز بدون مانع اقاصي الارض وما جاوزها . وتحلّق فوق السماء والبحار واللجج وجميع ما فيها ؛ بَيْدَ ان العقل لا يستأسر لهذه الامور ولا يستسلم لها ، بل يفت كلَّ لذّة ، مبتغياً الاله الجواد فقط ، تائقاً الى ان يتنقّى قلبه من كل شغف بسواه تعالى .

لكل وميضاً من اشعة الالوهية ، ولو ضعيفاً وشريرة من محبة الله ولو خفيفة ، تضحي ضرماً عظيماً ، يضرم النفس ، كذلك محب الله يذوب هيام بمشاهدة وجهه الكريم ، حتى لا الموت ولا الحياة ولا الاشياء الحاضرة ولا المستقبلة ولا خليقة اخرى تقدر ان تفصله عن محبة ربه ، (رومية ٨ : ٣٥) بل يكتمل ارادته القدوسة . وشفتاه تسبحان اسمه العالي ، فيتعزى بوجوده في كرخ ، ساكناً ساكتاً مسروراً باعمال النسك ، رائقاً بالاخيار والاشرار . وصلاته ان لا تفتر حرارة حبه ، ساترًا اياه ما استطاع ، غير محب سواه .

ان الامرأة المصرية (امرأة فوطيفار) التي تعشقت يوسف الحسن آمنت بعد موت بعلها ، فاراد يوسف ان يتزوجها فأبت قائلةً : لست أحبُّ عبدًا عرفتُ سيدهُ من قبلهِ فأحببته[1] .

﴿ الفصل الثامن : في معرفة الله ﴾

تعرف الخالق من الخلائق . تلك قاعدة تبعها كثيرون . اما المختارون الذين سبق الله تعالى فاعدَّهم ليكونوا مدعوّين وقديسين ، فيعرفون الخلائق من الخالق ، على ما قال احدهم : « اني عرفت ذاتي والعالم من معرفتي الهي » .

امّا المرتل الالهيُّ فيعلن نوع المعرفة الاول بقوله : « ان السماوات تذيع مجد الله (مزمور ١٨ : ٢) . ويفصح عن النوع الثاني بقوله : بنورك نعاين النور. (مزمور ٣٥ : ١٠) .

اما الحكما. الخوارج فيفضلون النوع الثاني من معرفة الله هذه على النوع الاول.

ولما كانت معرفة الله هي هي الدافع الى محبته تعالى وكان الكثيرون لا يعرفونه كما هو ، كانت من ثمة محبتهم له ، تقدَّست اسماؤه ، لا اساس لها[2].

ويوجد اناس يعترفون به كما هو ، انما ذلك منهم على سبيل التقليد والاخذ عن السماع مع شيء من الكرب المضطرب .

امّا الثابتون في معرفة الله ، فمحبتهم لجلالته مؤسسة على صخر متين ، حتى ان الشدائد والاضطهادات والسيف والنار لا تستطيع ان تزعزعها[3] .

---

١) لم يذكر الكتاب شيئًا من هذا .

٢) ربما قصد عدم الثبات في المحبة ، لمعرفتهم الله معرفة ناقصة .

٣) تلميح الى كلام القديس بولس : (رومية ٨ : ٣٥)

الفصل التاسع : في الاحوال التي تطرأ على الكملا.

في الغالب يطرأ على الكملا. من بلوغهم الكمال الى انحلالهم من الجسد اثنتا عشرة حالة : الاولى استغراق العقل في القلب ، حتى يقف الفكر لا يختلج واللسان لا ينبس بكلمة تمجيد وعندها لا يطيق المرء استماع حفيف ورقة ، فيسود السكون حركة النفس والجسد. الثانية التفقه ، وذلك متى عرف العقل رفيع منزلته وأدرك انه قَبَسَة[1] منه تعالى، فيستولي عليه من ثمة ، السكون ويأخذ منه السكوت مأخذه ، حتى اذا غلب عليه السهو ، تذرّع للعود الى ذاته بمطالعة الكتب ومزاولة السجود . الثالثة حبّ الترتيل الذي به يضحي المرء كاملًا ، حتى اذا ما تلا آيَ المزامير بذاكرته ، يكون كانه سامع المرتل الالهي يضرب على قيثارة ، ثم ينقضي مشهده هذا كانه لم يكن . الرابعة ذرف الدموع بداهةً حيث تتأجج المحبة في القلب نارًا فتفيض العيون الدمع مدرارًا . الخامسة تذكّرُ الدينونة ، حيث تتولّد في النفس المحبة البشرية ، ناظرةً الى الجميع بالسواء، لا تفرق بين البار والخاطئ ، ولا بين العبد والحرّ ، ولا بين الختان والقلف ، ولا بين الانثى والذكر ، بل تبغي المراحم للجميع . السادسة استنارة العقل باشعّة ملائكية ، تقوم من نار ونور ، فيتلهّف (العقل) للاندماج في اجواقهم (الملائكة) والانخراط في مصافّهم . السابعة استماع التقديسات السارفيمية التي لا يستطاع تمثلها بالاصوات الطبيعيّة ؛ لكن بالاصوات[2] العقلية. الثامنة التشبّه . وذلك متى استضاء العقل بالنور غير المنعوت ، حتى يستحيل اليه استحالة السحابة الشفافة تجاه الشمس ، حيث تأخذ شكلها كاملًا . التاسعة الاضطرام نارًا وهذا يحدث متى استحرّ جسدنا كلّه ، على نحو ما شوهد الانبا ارسانيوس ، اذ كان يصلّي في قلايته . العاشرة الاختلاء. وهذا النوع يدعوه الفقها. عير مكتتب وبه تُمحى الاعداد وهنا لا يلبث الضعف البشري ولا الصلاة ولا التضرّع ولا ذكر ما هنا او هناك ، لان العقل اذ ذاك يكون

---

١) نفحة تنير العقل وتضرم القلب .

٢) ربما اراد التأمل يكنى به عن صوت العقل.

كفاية جميع الصلوات وتمام العمل وتجنب السوءات وبس كمائل .
الحادية عشرة الفرح عن غير سبب معلوم . فيعرف العقل اذ ذاك ، انه فرحان ، لكنه لا يعلم ما سبب ذلك . الثانية عشرة جزالة الكلام وتبيين الخفايا وايضاح المستقبلات المسطرة في صدر الكتاب المسمّى سفر معرفة الله تعالى .

﴿ الفصل العاشر : في سقوط الكاملين ﴾

انه ولئن كان بدرجة الكمال يتقدس الجسد ويتطهر القلب ويستنير العقل ، فمع ذلك ، اذا لم يحتفظ المرء لنفسه ، ينشب عاجلًا في الشرك الذي يخفيه له الشرير ويسقط من سموّ ارتفاعه كما سقط بليار .

اذا استرقت المرء الافكارُ الشريرة فسرّ مغتبطاً بما يصير اليه من الاوحية ، رغب في ان يبوح بما استحقّه من المواهب التي لم ترها عين ولم تسمع بها اذن ، فيهبُ ميتماً المدنَ والقرى ، كأنه معلّم ومنقذ للنفوس ، رجاء ان يكون مثالًا يقتدي به كثيرون حتى يخيَّل اليه أن الابالسة يتعوّذون منه مولولين صارخين : ما لنا ولك يا عبد الله أأتيتَ لتعذبنا ؟ فتُمثَّل له الحيلاء أن الناس يشفون بواسطته . والشعب يزدحم مقتحماً ليدنو منه ليلمس ولو طَرَف ثوبه فيوقف من قصده على بابه وهكذا لا يتم ان يُبتم العالمَ فيكون انه اذا رأى نِدًّا له ، أفصحَ منه كلاماً واعذب مقالًا ، حسده وابغضهُ ، كما حدث لهرون الاسكندري ذي السيرة الشاقّة الذي كان يصوم من اليوم الى الثلاثة الايام . فتمكّن منه العُجب بسبب ذلك ايَّ تمكّن ، حتى عميَ عقله فأخذ يحتقر الانبا اوجريس قائلًا عنه : « انه يضلّل من يعلّمهم ، اذ لا يقتضي لهم معلّمون سوى المسيح القائل : لا تدعوا لكم في الارض عظيماً . (متى ٢٣ : ٨) ثم أغراه الشيطان فهبط الى الاسكندرية ، حيث راح مستغرقاً بجمأة الدنس ، حتى تهرأت خصيتاه ولم يشفَ الّا وقد عدمها تماماً فعاد الى رشده .

ان المرء يكمل بمثل هذه العواطف والنوافذ التي يجب ان يناجي بها ربَّهُ قائلًا : « لا تطرحني من امامك وروحك القدوس لا تنزعهُ مني » .
(مزمور ٥٠ : ١٣)

الباب الرابع

حكاية ترقي المؤلف في العلوم وفي ايضاح بعض قضايا (وهي مئة قضية »

لقد همت بمحبة العلوم منذ نعومة اظفاري ، ايَّ هيام وتفهَّمتُ الكتب المقدسة بالنور الطبيعي ودرست الاسرار الغامضة في كتب القديمين على استاذ ماهر . ولمَّا اكملت العشرين من ربيع عمري اضطرني البطريرك الذي كان يومئذٍ ان أقبل رئاسة الكهنوت فدعاني الحال اذ ذاك ان أوضح لسامعي اعتقادات الصرحاء والدخلاء. فبعد ان فكَّرت طويلًا بهذا الشأن تحقَّقت ان الاختلاف بين المسيحيين ليس على الافعال بل على الكنى والاقوال لانهم قد اجمعوا رأياً واعتقاداً أن المسيح إلهٌ تام وانسان تام بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تبلبل الطبائع : فهذا يكفي المثال الاتحاديَّ طبعاً وذاك يسميه ذاتاً وذلك يدعوه اقنوماً . فلمَّا رأيت المسيحيين على اتفاق تام غير منفصم العرى استأصلت من قلبي عروق البغضة بالكليَّة ونبذت تماماً أمر المجادلة في الايمان مع ايِّ امرء كان . وحرصت فقط ان احوز حكمة اليونانيين اعني الفصاحة والطبيعيَّات والالهيات والرياضيات والاشكال (او علم الهندسة) وعلم الفلك وحركات الكواكب . وبما ان الحياة قصيرة والعلوم كثيرة اكتفيت ان يكون عندي من كل فنٍّ خبر ، فكان مثلي بذلك مثل الغريق في البحر يمدُّ يده الى هنا وهناك رجاء ان يتعلَّق بما يمكِّنه من النجاة ولم افز من علومنا وعلوم الاعاجم بما كنت اطمح اليه الَّا وقد اوشكت التلف حتى لم اعد استحسن وصف ما نشبت به من الفخاخ لئلا آذيَ سمع الضعفاء . وباختصار القول لولا ان الربَّ قوَّى ضعف ايماني في الازمنة الشديدة وهداني الى اعمال الفكرة في كتب العلماء مثل الانبا اوريس[1] وبعض العلماء الغربيين والشرقيين ، منتشلًا اياي من وهدة الهلاك ، لكنت بنست من الحياة النفسيَّة ، لا الجسديَّة . فأكببت على درس هذه الكتب سبع سنين وقد كرهت نفسي سواها حتى اقتبست منها شيئاً ، لكن ليس لي بل للذين يرغبون شديداً في الاستفادة مني فشغلني ذلك زمناً

١) هو احد العلماء الذين عاشروا السياح والنساك وقد ورد ذكره قبلًا وذكره مراراً كتاب بستان الرهبان لما له من الحكم والاراء الصائبة .

طويلاً ، حتى كنت احياناً استغرب في الكفر قائلاً : ما أعظم مصاب هؤلاء المتوحدين ، اذ تسمع لطاحونهم جعجعةً ولا ترى طحيناً : ان كلامهم يشف الا عن افكار عقيمة . وصار عقلي مرارةً لي (كما قال الشاعر : عقلي معرفتي . يا ليتني لا اعرف . وناجاني (عقلي) قائلاً : لا تسفه ولا تظن ان كل ما لست تعرفه ، ليس بموجود لان ما تعرفه هو قليل جداً ، بالنسبة الى ما لست تعرفه . فكنت عند هذا اعرّج على الجنبين ، حتى أشرق عليّ شيء من اشعّة النور المحض لامعاً لمعان البرق ، فانجلى شيء من الغشاوة التي كانت تغشي عينيّ ، فأبصرتُ . ولكن بمقدار : ولكني أبصر اكثر ، شرعت اصلي بدون فتور ، راجياً رفع السياج المتوسط فأرى ، لا كمن في الظلام ، بل عياناً ، ذلك المحب غير المنظور .

فاليك ايها الحبيب هذه القضايا القليلة التي مثلها مثلُ بعض ما يضيئهُ وميض البرق في الديجور المدلهم :

١ً : ان النفس النقيّة لا تتعمّق في المعارف حبّاً للمجد الذي يحوزه العلماء في هذا العالم ، بل يتضاعف شوقها الى مشاهدة وجه سيد الجميع ، فتستطيع ان تلج في السحابة الالهية[1] .

٢ً : لقد ضلّ الذين ظنّوا انهم بلغوا درجة الكمال بتعمقهم في علوم قومهم وعلوم الاعاجم ، ولم يطهّروا نيتهم ، لانه ماذا ينفع اتقان المرآة وترصيعها باللآلئ الثمينة والحجارة الكريمة اذا لم تكن نظيفةً وما احسنها مجلوّةً ولو شابها وسخ الصناعة .

٣ً : كيف يعدل علمُ من عرف من الكتب كيفية عمل هيكل سليمان علمَ من دخله وشاهده بامّ عينه وعدّ عدداً كناناته وقواريره وكواه المصمتة وشرفاته ودهاليز اساساته ونرجسهُ وسوسنهُ واجنحة كروبيه ونقوش عتبه .

٤ً : ان علماء كثيرين وآباء عديدين حرصوا على جمع الدرهم وهاموا ايضاً بلذات سواه فقالوا : كما اننا نعدّ العلف للبعير الذي هو مركوب الجسد ،

١) هي السحابة التي تستنها عين الايمان فترى فيها عظمة اللاهوت وحاء الملكوت . وهو نوع من الصوفية المسيحية (راجع المشرق ٤٩ (١٩٥٥) : ص ٤١١) «صوفية الظلام في عرف القديس غريغوريوس النيسي» .

كذلك نعد القوت للجسد الذي هو مركوب النفس . ولم يضرّ بهم قولهم هذا كما لا تضرّ اصحاء المزاج المآكل التي تضرّ بالمرضى. لذلك ذابوا سلًا فصدّق خبرهم خبرُهم حتى لم يشعروا بمرضهم .

٥ : لقد ضلّ من ظنّ ان تلوّن قوس قزح متأتٍ عن تلوّن اشعّة الشمس اذ لا يكون ذلك الّا بتنوّع اقسام السحاب من مثل كثافة وتخلّل وتلبّد وشفوف .

٦ : لقد ضلّ ايضاً من ظنّ ان الشمس تضيء على الاجسام القاتمة وتنيرها، لكي تتمجّد الشمس وتمدح وتبجّل وتعظّم ، اذ ان المنير لا يكتسب ذلك من المنار بل بالعكس .

٧ : كما ان الجائع لا يشبع من المياه والظمآن لا يروى من الخبز ، كذلك العالِمُ الذي يرغب في ان يحدّق بالسحابة القمريّة، قلّما يلذّهُ استماعُ الكتب.

٨ : معرفة الله بالنسبة الى معرفتنا بقياس قوّته تعالى بالنسبة الى قوتنا .

٩ : ان الله تعالى هو ضابط الكل ، فكيف يتسنى للعقل ان يحوزه والمحوز يحوز شيئاً من الحاوز ولا يحوزه كلّهُ .

١٠ : مهما فكّرت في البيّنات والآيات والشهادات لتعرف الله تعالى ، فتكون كمن يطرّق ويصفّح حديداً بارداً . ولا يكون فيك الى ذلك الحين ، مثل حبّة الخردل من الايمان .

١١ : مشاهدة الله تكون بانماض الحواس وفتح طاق القلب ورفع الستر عن اللبّ كما قيل : سُدَّ الكوى فيضيء المسكن .

١٢ : ان الذين يغرقون في السحابة يدركون عمق حكمة الله وغناها بدون توسّط كثرة الافكار .

١٣ : كما ان العقل في هذه العاجلة ، يدرك ضرورةَ المبادئ الاولى كقولك: الكل اكبر من الجزء والواحد هو نصف الاثنين ، كذلك متى ولج العقل السحابة الالهية في الآجلة يعرف ضرورة احكام الله الخفيّة وغير المدركة .

١٤ : كما ان الحواس لا تستطيع ان تدرك الصور العارية عن الهيولى . وكما ان العقل لا يقدر ان يخلع نَعلي الجلد من رجليه ، كذلك لا يقدر ان يدرك الصور المكنونة في السحابة الّا على شكل مبهم وغير مستقيم .

١٥ : ان المعمى وهو في السحابة ، اذا رأى الجزل اصاب لذة لا تنعت . اما اذا اصاب هذه اللذة بدون تلك المشاهدة ، فتكون لذته لذة من يسمع بجمال جميل ، لا لذة من يرى جماله بام عينه .

١٦ : انه حينما تنفتح عينا العقل بقدر قابليته لذلك ، تفيض عليه النعمة باشعة مجيدة وملائكية ، يجوز الى ابناء الملكوت حيث ينتظم باجواقهم الشريفة ، فرحاً معهم نابذاً العالم وكل ما فيه .

١٧ : من لم يتقدس في داخل قدس الاقداس ذي النمام فهو ، وان اعترف بلسانه وآمن بجنانه وقد حبس نفسهُ عن المؤمنين فقد كذب كذباً .

١٨ : ان من يولد أعمى ، فهو وان صدّق بوجود اللون الابيض والاصفر والاسود والاحمر . والاصمّ ، وان صدّق ان سمعه يلتذُّ بنغمات الاوتار المتّفقة والاصوات الموسيقية المتسقة ، فتصديقها ذلك أقرب الى عدم التصديق ، منه الى التصديق .

١٩ : اذا لم تكن ، ايها الحبيب ، ذا ايمان صادق فلا تعطِ عينيك وسناً ولا جفنيك نوماً حتى تجد محلًا للرب حيث تقبل الايمان وتتعمد بالنار والروح[1] لا بالماء .

٢٠ : قد صار الايمان الصادق الى الانبياء والرسل ، بفيض النور العلوي بدون تعب والتماس . اما النساك فقد توصلوا من الايمان الظلي الى الايمان الحقيقي بالالتماس والتعب والتلهف والتلمذ .

٢١ : اجتهد بقراءة ما يخشع وعمل ما يوجع ، لتتسم بسمة ابناء الملكوت . فان كثيرين عملوا كثيراً ، انما كان ذلك منهم بدون افراز . فلذلك لم يدركوا طريق الحق ولم يبلغوا ميناء الحياة .

٢٢ : لا يُقتنى الكمال بالاعمال الجسدية فقط بل بجهاد الضمير النقي ونزاله . فاقرن إذن عملك الجسديّ بافرازك الروحيّ فتتفقه من ذلك ان تخدم بالجسد والضمير .

٢٣ : ان المحبة هي بغيةٌ شديدة في المحب للمحبوب ، يبغي بها المحبُّ

١) تلميح الى ما قاله القديس بولس لاهل افسس (اعمال الرسل ١٩ : ٢-٦)

بكليته انعطافَ المحبوب اليه فتكون البغية والانعطاف شقيقين يوجد احدهما حيث يكون الاخر ، فمن يبغِ اذن يجد ومن يسل ينل .

٢٤ : كما ان الحديد الخالص ينجذب بالمغناطيس ، اللهمَّ ان لم يخالطه جوهر آخر كذلك العقل ينجذب بكليته بالذات الالهية السامية ان لم تعترهِ الآلام اللحميَّة .

٢٥ : كما انه يصعب تمحيص الحديد من الجواهر الاخرى التي تخالطهُ ، مثل الذهب والفضَّة والنحاس والآنك ، كذلك تصعب عصمته من القبض عليه باليد وسائر العوائق الخارجة التي ليست من جوهرهِ . وكذلك تصعب تنقية العقل من العوائد البهيميَّة والحركات الاثميَّة ، التي يتبع طاعونها العقل طبعاً وتعسر عصمته من الارتباك بالزوجة والبنين والمال والاملاء .

٢٦ : عندما يدرك العقل انه يوجد كلمات لا يستطاع النطق بها واعمالٌ لم ترها عين ولم تسمع بها اذن ولم تخطر على قلب بشر (١ كور ٢ : ٩) حينئذٍ يعتلي على ما هو خارج السحابة من الدرجات ، واضعاً رجله على الدرجة السفلى التي في داخلها .

٢٧ : متى سمع العقل الكلمات التي لا يستطاع النطق بها ولا يمكن الفم ان يوضحها ، ومتى رأى الامور التي لم ترها عين ، يقطن حالاً ، في مسكن العليّ ويحلُّ في جبله المقدس .

٢٨ : البيعة تقول : انه « تعالى » واحد في ثلاثة والثلاثة واحد اذا ليس هو ثلاثة من حيث هو واحد ولا هو واحد من حيث هو ثلاثةٌ ، لان ذلك غير ممكن ...

٢٩ : ان للثلاثة بذاتها معنى الواحد الخاص الذي لا يقبل تعدُّد الثلاثات الكثيرة وبهذا المعنى هو واحد .

٣٠ : وبما ان العليَّ ذو ذات وكلمة وحياة[1] فهو واحد بالطبع (بالجوهر) وثلاثة بالاقانيم .

٣١ : ان الكلمة وهي مكنونة في ذلك الناطق ، تبدو كأنها مولودة

١) كنى بالذات عن الآب وبالكلمة عن الابن وبالحياة عن الروح القدس .

من مستودع . اما حياة ابي ظاهرة في الواحد بقدر وحدته وهكذا فالابن مولود وليس بمنشق والروح منشق وليس بمولود .

٣٢ : انه وان كان البارئ تعالى يفعل اختيارياً ، مع ذلك لا يستحيل على البرايا ان تستوضحه بتوسط اي جسم كان .

٣٣ : اذا كانت لم تجحد قضية ظهور البارئ تعالى في العليقة لموسى ، اذ أسلمه الاحكام والشرائع للاسرائيليين ، فكيف تجحد ظهور الله للعالم بانسان كامل ذي نفس ناطقة عاقلة .

٣٤ : من ليس وجوده من ذاته بل من علّته ، فلا يستطيع ان يكون علةً لوجود آخر ، بل وسيطاً ، لكنَّ الله تعالى وحدهُ هو علّة الجميع وهو تعالى يعمل الكلَّ بالكلّ .

٣٥ : ان القمر يستنير من الشمس ، فيضيء نورهُ الارض ليلاً فكيف وهو لا يملك النور بذاته يمكنه ان ينير الارض فليس هو اذن علةً بل وسيطاً بين العلة والمعلول .

٣٦ : كما ان المرآة خاليةٌ بذاتها من كل صورة ومثال وبحسب نقائها وصقليها تتمثل بها الصور الخارجة عنها ، كذلك العقل عارٍ من الصورة وبحسب نقاوته من الادناس الهيولية تتمثل به الصور الغير الهيولية .

٣٧ : ان نسبة مملكتي السما والارض الى ملك الملوك وسيد السادات وإله الآلهة ، نسبة الرسوم في المرآة الى المرآة والرسوم خارجاً عنها .

٣٨ : كما انه ليس من وجود ثابت لما يكون في المرآة من الصور بل وجود هذه الصور الاصليّ يتبع ما يتمثل منها في المرآة وهو خارج عنها ، كذلك ليس من وجود حقيقي للملكتين الجسيّة واللاجسيّة بذاتها ، بل وجودهما يتبع وجود علّتها الاولى .

٣٩ : ان وجود الحق الاول ليس بزمنيّ حتى يقال انه كان ولم يكن معه شيء ، او انه كائن وليس معه شيء . وان قيل ذلك فللمعقول الغير المهذّبة يقال .

٤٠ : ان مَن لا يزال يمتصُّ الحليب كالطفل ، لا يتغذىّ بغذاء البالغين . ومن ينظر كالخفاش ، لا يحدقنَّ بالشمس ، فمن هو هكذا لا يتوسعنَّ بمعنى القضيّة السابقة ، فلا ينبذه ولا يجذبهُ بل يحفظهُ ممثلاً بقلبه الى ان يبلغ اشدّه .

٤١ : متى انفتحت كوى قلبك ، تطير ووجهتك الملكوت ، حيث تشاهد كل هذه الاشياء عياناً ولا تحتاج ايضاً الى وصفها لك بل تكون مؤمناً لا غير مؤمن .

٤٢ : بحسب تغيير الابراج القمرية بالنسبة الى الشمس ، تتغيّر اضواء القمر فيثبت نوره بثبات ابراجه ويزول بزوالها .

٤٣ : كما ان مقام القمر نظراً الى الشمس ليس هو بواحد دائماً ، بل يتغيّر من وقت الى آخر ، كذلك نور العقل يكبر او يصغر نسبةً الى ما يعرض له من التقلّبات .

٤٤ : انه ، وان كانت الجواهر تصير ازليةً في العالَمَين ، مع ذلك بقدر ما يكون العقل متعلقاً بالمادّة ، تكثر مفاجعهُ ومتى انعتق منها ندرتْ تغيّراته ، حتى لا ينقص لمعاناً عن شمس البرارة العظيم .

٤٥ : ان الذات الالهية التي تراءت للسماء والارض وما فيها قبل الجبال ، هي غير التي تُرى الآن وهذه غير التي كانت تُرجى . وبما ان تلك زالت ، تجدّدت هذه وتلك المستقبلة تتجدّد .

٤٦ : بما ان الموجودات الزمنيّة جميعها مشتركة في الانواع ، فيُظَنُّ غلطاً ، ان لها ذاتاً واحدة ، كمن يرى يوحنا مثلاً ، ثم يرى يعقوب فيظنه يوحنا الذي رآه اولاً وكلاهما مشتركان في الطبيعة البشرية .

٤٧ : ان ذوي الفهم الصبياني ، متى شاهدوا ضوء المصباح نفسه ، يظنون ان للضوء من بداءته الى نهايته ذاتاً واحدة . اما العقل الرجليُّ (الناضج) فيعرف انه يوجد ويتجدّد ذوات بقدر الاجزاء والاقسام من الزيت التي تذهب وتتبدّد .

٤٨ : ان العقل يتصوّر ان زوال الذوات وتجددها صعب جداً . وبعد دروس كثيرة وتخرج متقن ، يستطيع العقل ان يستدلّ على حقيقة ذلك . اما العلماء فيفقهون ويعلمون ان البارئ تعالى يبدأ في كل دقيقة ذاتاً جديدة لكل مبروء .

٤٩ : ان من يرون بعين الروح زوال الذوات وتجدّدها يهتفون صارخين : ان الله تعالى الذي يصنع الكلّ بالكلّ هو واحد احدٌ به نحيا ونتحرك . ومنه وبه كل حركة وكامل حياة العقل والنفس وكلّ طبع .

٥٠ : علم الكاملين هو علم موحى وكل علم موحى هو علم نبوي.

٥١ : علم الكاملين هو علم نبوي ولا يُقتبس قط او يُتقن علم واحد نبوي من تدبر الكتب ودرسها .

٥٢ : ان امير الانبياء قد كان يوماً الكون أشبع ثم اضحى كارموزاً تتدفق من فيه انهار ماء الحياة بحسب ما كانت تقتضي الظروف التي كانت تطرأ عليه.

٥٣ : من لم يذق محبة مولاه لا يستطيع ان يدرك قوة كلمات الحبيب لانها سرية وكلمات روح لا ينطق بها برموز سرية .

٥٤ : من يكتب اسرار الروح والروح لم يستكتبه فهو نحاس يرنّ او صنج يطنّ لان الروح لم يزج حلاوته بكلماته .

٥٥ : من يتعلم اسرار الروح من الروح ، يجتني سامعو كلامه كلّ لذة وكلمته تستأصل من افئدتهم جميع الآلام .

٥٦ : من يرغب ان يقرع باب الملكوت يكفيه ليعرف طريقهُ جزء صغير من كلام العلماء ، يلهج به كثيراً ويفكر به طويلاً . فلا يضيّعنّ اذن أيامهُ ويبذلنّ اوقاته بدرس الكتب المريضة العلوم المسببة الكلام .

٥٧ : ان وجد مكتسب الجزء الصغير من علوم الكاملين معلماً فبكلمة من فيه يهتدي الى طريقه . والّا فليكحل بصيرته بإثمد الزهد فيرى الطريق القويمة.

٥٨ : حتى مَ تبغي مرشداً يفتح اك في عمق قلبك باباً الى الملكوت . نظف يا صاح مرآة عقلك من الوسخ فتريك صور الملكتين وتهديك السبيل الموصل الى مملكة السماء ثم تبلغك الى مملكة الله تعالى .

٥٩ : ما زال الظمآن لا يستطيع ان يَرِدَ المياه فلا يقدر المرشد ان يورده اياها أو يحمله اليها لكنهُ يستطيع ان يعلّمه كيف يَرِدُها .

٦٠ كما لا تفيد الريح وإن موافقةً السفينة المثقوبة كذلك لا يفيد المرشد ولو ماهراً القلب المستهوى باللذات .

٦١ : كما ان الوعاء لا يعي المياه منقلباً كذلك لا تستقرّ الموهبة السماوية في النفس مطرقةً الى الارض .

٦٢ : انه لينفع كثيراً التشبه بالانقياء القلوب الذين طهّروا انسانهم

الباطن من كل دنس وقبلوا كلَّ موهبةٍ كاملة تهطل من لدن ابي الانوار .

٦٣ : انه لسعيد واهل لكل غبطة من وجد استاذًا يفوق نور شمسه ضوء سراجه واختطف بنور سيده ومات عن العالم وعاش لله تعالى .

٦٤ : ان الحياة الحقيقية هي ما يقتنصه الكاملون من تَدَلِّي العناية السامية. امَّا معلو الناموس والكتب فليس فيهم من هذه الحياة سوى الاسم والوسم .

٦٥ : لو لم ينهض الربُّ لنصرتي وينجيني من ضلالة العلوم المختلفة والاعمال المتباينة فلت الى تدبُّر مدارج العلما. مدى سبع سنين ، لكانت استولت عليَّ الفوائد الشريرة التي انشبت براثنها بكثيرين .

٦٦ : لعلَّك تقول : هل من علامة فارقة بين العالم الحقيقي والعالم المرائي المخادع ؟ فاجيب : ان لذلك علاماتٍ كثيرة لكنَّها قد تخفى لاول نظرةٍ الَّا انها تنجلي مع مرور الزمان .

٦٧ : من لم يذق لم يعرف ومن لم يأكل لم يشبع من نجوى ، من اكل نشبع ومن لم يشرب لم يروَ من خطاب ، من روي ومن لم يخبر الامور بذاته لا يلذه اختبار من قبلها اختبارًا .

٦٨ : ان البعض من العلما. الذين تخرَّجوا بالكفاية في الكتب المقدسة وتفاسيرها لم يحرصوا ان يتعلَّموا طريق الملكوت من وصفائهم ولم يتبيَّنوا ، ولو ماهرين ، ان علمهم سماعيٌّ وان علم العلما. ولو بليدين هو نظريٌّ .

٦٩ : اني بسيدي سيد السادات اقسم لكم ايها العلما. العجيون : انكم ما زلتم لستم كالاطفال خالين من كل عجبٍ وكبرياء. فلا تزالون غير عارفين جهة الملكوت فكيف اذن تتجاسرون ان تمشوا في طريقه آملين ان تبلغوه آمنين بل لا تزالون بعيدين عنه بقدر ما تظنون نفوسكم قريبين منه .

٧٠ : من ادراك النفس الناطقة وتحريكها للجسد مركوبها نعرفها معرفة بسيطة لان للحيوانات الغير الناطقة كلا النوعين . اما عدم فسادها بفساد الجسد فيثبت حقيقته علم العلما. الدقيق النظر والعميق البحث من لاهيوليَّتها .

٧١ : ان النفس الناطقة تقبل العلوم الهيولية بيد انه لا احد هيوليٌّ يقبل العلوم العقليَّة لانها لا تتجزأ وكلُّ هيولي يتجزأ ولا يمكن ان يحلَّ الغير المتجزئ في المتجزئ .

٧٢ : ليس من نفس هيولية ... قابل الفساد هيولي هو ولكي يفسد يلزم ضرورةً ان يكون فيه شيء كالصورة وشيء كالمادة ليقبل فساد الصورة.

٧٣ : ان البرايا تُعرف من بارئها كما يُعرف البنّاء من البنيان وهذه معرفة عامّة بسيطة تتسنّى حتى للمزدج . امّا نظر الحكماء الدقيق فلهُ حكم خاصّ يعرف به الواجب الوجود من الموجود هكذا: اي ان الموجود اذا كان واجب الوجود فذلك المقصود واذا كان مستطاع الوجود فيحتاج الى الواجب الوجود فيوجد اذن واجب الوجود .

٨٤ : وللإمام القهّامة معرفة اخرى اخصّ تعتني بتنقية الافكار واماتة الجسد واغماض الحواس وقطع الرباطات فمتى استنار القلب بمثل هذه المعرفة يتمثّل ملكوت الله في داخله وداخل امثاله من الائمّة فلا يعودون الى طلبه هنا او في اورشليم .

٧٥ : ان العقل الذي يكون قد اتّقد حبا بسيده اذا انتصب تحتهُ خطأً عموديًا يكتسب حالًا شيئاً من ضيائه وبينا يكون مظلماً يستنير بطرفة عين كما يستنير المصباح المطفأ فورَ ما يمسُّ المصباح المشعشع .

٧٦ : فوق وتحت وأمام ووراء هي أسماء تختص بالاشياء ذوات الاجسام لا بغيرها انّما بسبب ندرة الاسماء وفقر الكلام يتصرّف المتكلم بالاستعارات.

٧٧ : من يسير مستصحباً بنور سراجه يستقرّ في دنجور مدلهمّ ويمشي في الظلام لا يعلم اين يذهب . ومن تخفي شمسهُ سراجهُ يسير على ضوء النهار لا يعثر ابدًا .

٧٨ : ما اسرع زمان هذا النور واضيق وقته وأقصر نهاره وأخصر ساعاته ومع هذا لا يستأهله الّا نفر قليل ، امّا انا فوسط ظلمتي هذه قد رأيتني كانني والشمس تفجّر اشعتها الصبح العميق حوالي أفقي أو كالبرق الذي يمرُّ سريعاً.

٧٩ : ما زالت شمسي في برج الجدي فهي مثلي وإن بعيدة عنه الى الجنوب ولم تبلغ أفقي . فاذا اشرقت عليَّ ولو قليلًا بنورها الصادقة فانشرق متخشعاً لا كمن لا يعلم بل كمن اعلم ان اسجد له تعالى بالروح والحق .

٨٠ : اخبرني علّامة سعيد قال : « اذ كنت بعدُ مبتدئاً بتأمل النور غير المدنو منه ، ارتجّت مفاصلي وجنّ عقلي ورأيتني كاني راكب فحلًا شبقاً يغرق

في العدو بكل قوته ولم اعلم هل كان ذلك بالجسد او بغير الجسد لاني كنت كمن يطير في الهواء . ولما سكن جأشي وثاب اليَّ عقلي ، اخذ لساني يتلجلج قائلًا : قد صار ما صار ولستُ أخبر بما صار اسمع يا صاح واسكت ولا تَرُدَّ أن فسَّر وافصح عن ذلك وأوضح » .

٨١ ثم بعد ان تقوّى نوعاً عاد فقال : لقد جاشت بي محبّة مولاي ومرات كثيرة لا تدعني أُقيم واجبالي بل اخرُّ على وجهي كميت فيسخن الجيد وتكثر زفراتي ويناجيني فؤادي قائلًا : الى مَ انت في هذا حكم الروح وتلهفه وماذا ينفع تذكُّر الحبيب ، والحب في قفص التميز ؟ »

٨٢ : ثم زادَ قائلًا : « انني لمّا بلغت اشدّي صدر امر الملك السامي ذي السلطان الابدي والملك الدهري آذناً لي بالدخول فاخذ العقل ، فورَ هذا ، يكسّر ذلك القفص طائرًا الى وكنه القديم حتى وقف امام ملك الملوك وسيد السادات حيث نال لديه حظوةً كاملةً » .

٨٣ : احرص لئلا تكون شبيتك سبباً لتضليلك ، فتظنَّ انك من هذه المباني تفهم المعاني ؛ لا يا اخي ، بل ان كنت راغباً في ان تحيط علماً بغوامض الاسرار ، أبغضنَّ الطائفين كلاهما ودع الموتى يدفنون موتاهم ، مبتغياً الحيَّ الابديَّ فقط الذي اذا تعبت الدهر كلّه في التماسه ، تحيَ الى الابد .

٨٤ : ان السفليين يلتمسون هذا العالم والعلويين يرغبون في العالم المقبل ، لا بفصلهم عن محبته ، لا هذه الاشياء الحاضرة ولا المستقبلة ولا خليقة اخرى وبقدر ما يُحتقرون لاجل محبّتهم له ، يزدادون تعطُّشاً اليه .

٨٥ : كل نفس نقيّة تشتاق مقرَّها القديم عائدة اليه بالطريق الاقوم والاقصر ؛ ذلك رمزٌ الى ان الابرار يمرّون على جسر النار والنار تحاق على خطٍ مستقيم .

٨٦ : ان العقل غير المدنس يتقدم وهو في الطريق قائلًا : « أبنْ لي طريقك فاسير فيها وأحيني بسلك ومتى بلغت الموعد احفظني مثل حدقة العين واظلّني بكنفك » ثم يسأل الله تعالى صارخاً : « احمني اللّهم من قوات الجسد الاثيمة التي راشتني بسهامها ونجني من الآثام السمجة التي تُثلت عليَّ وطأتها » .

٨٧ : قد يكون نظر العين صادقاً كما لو نظرت البحر اكبر من الحوض

وقد يكون كذلك كما ان صورة الشمس كما ترى في الكوكب كالمرآة وكذلك تكون بين ما تصور العين مثل تصور القريب .

٨٨ : قد يصيب العقل بحكمه كما لو حكم ان الله تعالى واحد واجب الوجود وباريء الورى . وقد يخطئ العقل كما اذا افلتت من نير الجسد فرأى الله تعالى كما هو .

٨٩ : كما ان الخفاش لا يستطيع ان ينظر الى الشمس ، كذلك الانسان ولو باصرًا ، فلا يرى الله تعالى كما هو ، بل يستشف النواريا في العلي بالسمع لا بالنظر . والعالم يرى شيئاً من محاسن جلاله تعالى لا كلها . لانها لا تدرك .

٩٠ : عوّد نفسك ان تصدق ما تسمعه من الصادقين ولو كنت لا تعلم حقيقته ولا تطلب برهانه المنطقي . هذا ما يليق بالصدق تجاه موهبة البارقليط ، روح الحق الذي هتف لحوك قائلًا : هو يعلمك ويذكرك كل شيء . (يوحنا ١٤ : ٢٦)

٩١ : ان قيامة الاجساد تكون بوحدة النفس المثناة وقيامة النفس بالحلال وحدة الجسد وذلك يكون بعد شدة وفيرة فتظلم الشمس والقمر اللذان هما العيون وتتساقط الكواكب التي هي بمنزلة الحواس وتتحرك القوى التي تحرك الجسد وترتجف سائر الاعضاء .[1] فيكون ان النفس الطاهرة التي نهضت من سقطتها تسير الى الخدر السماوي الموعودة به على ضوء علامة ابن الله (التي هي الصليب) .

٩٢ : يُعرف تباين نفس الفرس والقنفذ والانسان من اجسادها . والائمة يعرفون المنزلة التي تليق بكل نفس بشرية من حركاتها فيميّزون بين النفس التي مقرّها قدس الاقداس الداخلي وبين النفس التي مقامها بمنزل عن السحابة . ويعرفون ايضاً المتوسطات وسائر السفليات المحرومة من النور تماماً فيشقون مع الابالسة حيث لا يفتقد الرب .

٩٣ : بعد ان تقترن اعمال النفس والجسد وتصير لك سذاجة حسنة الطبيعيّة او المشاكلة لها ، فاعلم ان ليلك قد ذهب وحزنك قد زال وفجرك انبثق وصباحك تبلّج فينشر عليك سيدك نور الايمان ويعزّيك بأوحيته .

١) شرح لما جاء في سفر الخامسة ١٢ : ١ - ٨ .

٩٤ : اني بما قلت و تقول سيقول لا ارذل النثر بيد . كيف لا وهؤلاء علماء صرحاء وحكماء دخلاء قد وقفوا على ما سما من المعارف ، لكني اذ ارى نفرًا منهم يجرأون على ان يزنوا كل شيء بميزانهم ، لا يروقني افتخارهم هذا ولو كان ميزانهم عادلًا وقسطاسهم صادقًا ، اذ لا انسى امور العالم المزمع التي لا ينسى ، ولو تبعيضيًا ، ادراكها جليًا .

٩٥ : متى أزحتَ عقلك من «السعي» في ادراك المطالب العويصة بالبراهين المنطقية وامتلكت سكونًا وهدوءًا واعمالًا متقنة ، فأطل روحك ولا تَنِ في طريقك عسى تشرق شمسك ويضيء مساؤك ، فيريك ذلك جمالك ويحرّرك من عبودية الزمان واسترقاق المكان .

٩٦ : متى تجلّت للحبّ شمس الحبيب في يوم لا يوم له فأبصر العروس السليمانيّة تتباهى متجليةً بدون حجاب فتدخله بذاتها السبعة الاعمدة معلنةً اياه محبوباً فوق الجميع . وتوفّق بينه وبين كواسر الطيور وضواري الوحوش اذ تستنشق هذه منها رائحة باريها الذي تشعر به الطبائع غير الحساسة وتعتز له الابالسة وتخدمه الملائكة .

٩٧ : عندما يبلغ هذا الموعد السعيد لا يعود يشرب من الصخرة او البئر بل من المياه التي يعطيه سيده فلا يظمأ ايضاً ، بل تكون فيه ينابيع مياه تنبع الى الحياة الابدية .

٩٨ : ان المبادئ المتقدّمة تفيد فقط من تخرّج وتعمّق في معرفة الاعمال الالهية والبشرية وتلهف اشتياقًا الى ان يرى جليًا ما هو من قبيل التراريًا . ومن فقد هذا الشوق فليضاعف همّتهُ ويكثر تأمله في هذا الكتاب بتبصّر لئلا يهيج قلبه بقراءة بهيمية .

٩٩ : ان اسباب محبّة ما هو جميل متنوّعة وكثيرة جدًا ، فلا قِبل لي أن أصفها ولا يسعني الزمان ان اعدّدها اذ قد أعياني الكلام فمال قلبي الى ما هو أفضل لي . والآن فمن استطاع ان يثبت في حرب الحبّ فليثبت ومن لا يستطيع الى ذلك سبيلًا ، فليأكل بقدر قوته فقط وعلى قدر بساطه فليمدّ رجليه .

١٠٠ : وهذا الزرع ولو ضاهى حبة الخردل صغرًا ، فمع ذلك من حيث إنه لم يزرع على قارعة الطريق او على الصخر او بين الشوك ، بل زُرع في ارض جيّدة ، فانه يربو وينمو حتى يصير شجرةً عظيمةً تأوي طيور السماء تعشش في أغصانها . ومع هذا اذا لم يُعطَ الانسان من فوقُ فليستمد شيئاً مما له خاصةً .

∴

قد تمّ كتاب الحمامة هذا في تدابير المتوحدين العجيبة
بعون الهنا سيد الجميع المسجود له وبقوة البارئ
وغوث الروح القدس فله المجد والاكرام
والاعظام الى ابد الابدين
آمين